381

HARLEQUIN

روايات أحلام

الانتقام الأخير

كيت والكر

www.elromancia.com

مرمورية

الانتقام الأخير

لم يرد جايك تافرنر امرأة كما أراد مرسيدس ألكولار. لذا، عندما نبذته بطريقة مؤلمة، طالبته كبرياؤه المجروحة بالانتقام.

- ما الذي تريده تحديداً مني؟

هذه المرة، لم يتمكن جايك من كبح ابتسامته، فارتسمت على وجهه ابتسامة واسعة ماكرة.

- آه، مرسيدس، ألم تكتشفي ما أريده بعد؟ ظننت أن الأمر واضح.

- ليس بالنسبة لي، عليك أن تتكلم بصراحة.

وهكذا فعل...

- ما أريده من كل هذا يا عزيزتي، هو أنت. أردتك منذ رأيتك للمرة الأولى... ولم يتغير الوضع. أريدك وأنوي الحصول عليك بأي طريقة كانت...

لبنان	2500ل.ل	البحرين	1دينار
سوريا	75ل.س	السعودية	10ريال
الأردن	1.5دينار	مصر	8جنيه
الكويت	750فلس	المغرب	15درهم
الإمارات	10دراهم	تونس	2دينار
قطر	10ريال	عمان	1ريال

ISBN 9953-15-335-3

كيت والكر

ولدت «كيت والكر» في «نوتنغها مشير»، لكنها كانت دائماً تشعر أن جذورها متأصلة في «يوركشير»، لأنها ترعرعت هناك. التقت زوجها في الكلية وعملت أولاً كمشرفة على مكتبة لكتب الأطفال. بعد ولادة ابنها الأول عادت إلى الكتابة التي أحبتها في طفولتها. عندما لا تعمل، تكرس بعضاً من وقتها لعائلتها وقططها الثلاث وولعها بهواية التخريم وجمع التحف ومشاهدة الأفلام والمسرحيات... والقراءة طبعاً.

١ - الرجل المجهول

إذاً، هذه هي مرسيدس ألكولار!

رفع جايك كأسه إلى شفتيه وارتشف رشفة بطيئة من العصير وابتلعها من دون أن يرفع عينيه عن المرأة التي دخلت لتوّها إلى الغرفة.

مرسيدس هونوريا ألكولار.

ابنة الأسرة العريقة التي يترأسها خوان ألكولار المعروف عالمياً، مالك شركة ألكولار المساهمة ومديرها الإداري.

ومرسيدس ابنته الصغرى والوحيدة.

إنها مميّزة فعلاً، لكنه توقّع ذلك. كيف يمكن أن تكون خلاف ذلك وأبوها ذاك الرجل «الطويل، الأسمر والوسيم» الذي يسرق قلوب النساء إذا ما دخل إلى غرفة ما؟ وهذا ينطبق على أخوتها، إذا ما صدقت الشائعات. ورامون، ابن خالته والألكولار الوحيد الذي يعرفه، من الرجال الذين يديرون رؤوس النساء ولطالما كان كذلك.

إلاّ أنّ رامون ليس سوى أخ هذه المرأة غير الشقيق، فوالدهما واحد. لكن والدة رامون هي خالة جايك، وهذه الفكرة جعلته يقطب فيما هو يراقب ابنة ألكولار وهي تقطع الغرفة.

لم تكن والدته تأتي على ذكر اسم خوان الكولار من دون أن تنفث حقداً وغلاً، حقداً تخص به كافة أفراد أسرة ألكولار... باستثناء رامون طبعاً. فسنوات مرت من دون أن يعرفوا أن رامون من أسرة ألكولار. ولم يكتشفوا إلاّ من عشر سنوات أنه ليس ابن روبين داريو، زوج خالته، بل ابن عشيقها، الرجل الذي جعلها تحمل ثم تخلّى عنها.. للمرة الثانية.

www.elromancia.com

وهذا الرجل هو خوان ألكولار.

أعلنت اليزابيت تافرنر بحنق الأسبوع الماضي عندما اتصل بها جايك ليزورها عند المساء: «ابنة ذاك الرجل قادمة إلى لندن».

- سمعت الخبر.

لم يحتج لأيّ تفسير عمن قصدت بعبارة ذاك الرجل. فما من شخص آخر تشير إليه اليزابيت بهذه الطريقة وبهذه المرارة.

- سمعت أنّ أنطونيا ساندرز ستجول بها في المنطقة... وتصطحبها إلى بعض الحفلات.

أدارت أمه رأسها الأشقر باتجاهه بحدة، فيما لمعت عيناها الزرقاوان.

- أهي حفلات سترتادها؟.

- نعم، حفلات سأرتادها.

أكد لها جايك ذلك بسأم قبل أن يضيف: «إنما أشك في أن ألتقي الفتاة، وحتى إذا فعلت.. لقد مرّت سنوات يا أمي.. عمر بكامله».

فذكرته اليزابيت بمرارة: «عمر لم تعشه أختي».

وراحت أناملها الطويلة والمطلية الأظافر تنقر على الذراع الذهبي لمقعدها ثم أردفت: «لقد ماتت مرغريت بسبب هذا الرجل».

- هذا ليس مؤكداً...

- قال الأطباء...

- قال الأطباء إنّ قلب الخالة مرغريت كان ضعيفاً؛ وقد أنهكه ضغط الحمل والولادة...

- يمكنهم أنّ يعتبروه قلباً ضعيفاً، لكنها ماتت بالنسبة إليّ لأنّ قلبها تحطّم... وقد حطّمه الرجل نفسه مرتين!.

وفكّر جايك في سرّه في أنّ المرء لا يمكن أن يموت بسبب تحطّم قلبه، لكنه ابتلع تعليقه ولم يبح به. فكلامه سيزيد مزاج أمه سوءً، وسيجعلها تلقي عليه خطبة طويلة مليئة بالغضب والاشمئزاز، خطبة سمعها مراراً وتكراراً حتى ملّ منها.

- حسناً، أشك في أن ألتقي هذه المرأة، حتى وإن قصدنا الحفلات نفسها. كما أنني بقيت بعيداً عنها وعن عائلتها لسنوات.. ولا أظن أني سأسارع لإلقاء التحية عليها لأننا اكتشفنا أنّ ثمة قرابة بيننا.

- آمل ألاّ تفعل. خاصة بعد ما فعله والدها في تلك المناقصة.

وخطر لجايك أنّ هذه نقطة سوداء جديدة في سجل خوان ألكولار، فيما هو يراقب مرسيدس ألكولار رغماً عنه.

إنها ملفتة للنظر، ملفتة للغاية، وهذه هي المشكلة. فهي طويلة القامة ونحيفة وممشوقة... تحت ثوبها الأحمر والأسود، بدت بشرتها الزيتونية اللون ناعمة ومخملية، وقد زاد من جمال وجهها البيضاوي الشكل، عينان بنيتان لوزيتان تزينهما أهداب سوداء طويلة. أما فمها «فممتلىء»، بالكاد يحتاج لمسة أحمر الشفاه لتضفي عليه لوناً أغنى. كان شعرها الأسود الحريري معقوداً بأناقة، كاشفاً عن عنق طويل، أنيق. ولم تضع أيّ مجوهرات باستثناء القرطين الفضيين الطويلين المتدليين من أذنيها الجميلتين.

لكن ما لفت انتباهه هو الطريقة التي تتحرك فيها... كانت رشيقة ومتكلفة، تمشي بأناقة هرّة.

لا يمكن لومها بالطبع على طريقة تصرّف والدها، سواء في الماضي أو مؤخراً حين شارك خوان ألكولار في مناقصة حامية للاستيلاء على شركة كان جايك يرغب في الحصول عليها، ما جعل شركة تافرنر للإتصالات تمرّ بسنوات صعبة. مرّت الشركة بأزمة مالية وكادت تفقد الكثير من الأموال ما اضطر جايك للاستغناء رغماً عنه عن بعض الموظفين.

ولم يكترث خوان الكولار البتة.

- لا....

همس جايك بهذه الكلمة لنفسه.

- لا، لست مهتماً.

لعل مرسيدس ألكولار أجمل امرأة رآها منذ سنوات.. أو في

حياته... إنما لو كانت مثل أبيها فلن تحمل معها سوى المشاكل.

إنها تعني المشاكل على أيّ حال، حتى إن لم تكن تشبه أباها. ستُجنّ أمه إذا ما تحدّث إلى الفتاة، من دون أن يذكر أنه وجدها جذابة وملفتة للنظر. ولا بدّ أنّ شعور والدها سيكون مماثلاً. كل ما سمعه يوماً عن الرجل يوحي بعجرفة فائقة، وباعتداد بإرثه الكتالاني، وبمركزه الاجتماعي الذي يبقيه على مسافة من عامة الناس.

شيء ما لفت نظره فيما كان يستدير ليتجه نحو الباب، ما جعله ينظر مجدداً إلى الخلف لتلاقي عيناه الباحثتان عينيّ مرسيدس ألكولار الواسعتين والبنيتين بلون الشوكولا.

وللحظة، تشابكت عيونهما. لم يستطع أن يشيح بنظره كما لم تستطع أن تفعل هي على ما يبدو. بدت كظبية مجفلة جمدت مكانها، تحدّق إليه من دون أن يطرف لها جفن.

لكنها ما لبثت أن رمشت بعينيها، وتغيّرت تعابير وجهها فجأة. فاختفت النظرة المذهولة، وتبخرت كالسديم بعد شروق الشمس، ليحلّ محلها تعبير مختلف تماماً.

ولو لم يكن يعلم أنها لا تزال تقف هناك، وأنه كان يراقبها ويتأملها طوال الوقت، لظن جايك أنّ شخصاً آخر دخل الغرفة وحلّ مكانها. فملامحها الجميلة والمعبّرة تجمّدت، وعلاها قناع بارد كما لو أنها أصبحت فجأة منحوتة من جليد. تيبّست شفتاها المثيرتان لتتحوّلا إلى خط رفيع قاسٍ وارتفعت ذقنها وراحت تنظر إليه من أعلى أنفها الارستقراطي، الصغير، المستقيم.

وعلت العينين البنيتين اللامعتين غشاوة فحولتهما إلى قطعتين من جليد، باردتين وبعيدتين كصخرتين في قاع البحر في يوم شتاء عاصف.

عندئذٍ، شعر جايك وكأنّ بعض هذه البرودة لامس قلبه. لعل مرسيدس ألكولار أجمل امرأة رآها يوماً، لكنها الآن الأنثى الأكثر برودة وتكبّر وتعجرف التي قُدّر له أن يقابلها.

بدا وكأن تلك النظرة تسأل: «ومن أنت بحق الجحيم؟ من أنت وكيف تجرؤ على النظر إليّ؟».

هذه النظرة ارتسمت على وجه والدها في المرة الوحيدة التي اقترب فيها جايك منه بما يكفي ليراه. لقد شارك الاثنان في مؤتمر لوسائل الإعلام في فندق ضخم في مدريد وشيء ما أزعج خوان ألكولار. سؤال طرحه صحفي أزعجه فرمقه بنظرة عنت «ومن تظن نفسك بحق الجحيم؟» قبل أن يستدير ويرحل من دون أن يتفوّه بكلمة.

ومن تظنين نفسك يا سنيوريتا ألكولار لتنظري إليّ بهذه الطريقة؟ توجّه في سرّه بهذه الكلمات إلى المرأة الاسبانية. ألا تعلمين أننا أسقطنا النظام الإقطاعي منذ قرون؟ لعلك من الارستقراطيين في اسبانيا... لكن هنا، أنت امرأة عادية من عامة الناس.

آه، أيها الكاذب! لامته حواسه فيما انقبضت أحشاؤه. أيها الكاذب الكبير! لا يمكن لهذه المرأة أن توصف يوماً بالعادية، حتى كأسوأ لفظة للحدّ من قدرها. إنها فاتنة... لكن المشكلة تكمن في أنها تعلم ذلك.

كان مصمماً على ألاّ يدعها تكتشف مدى تأثيرها فيه. هذه النظرة المتعالية والباردة أعلمته أنها تدرك تأثيرها في الرجال وأنها لا تتنازل للاعتراف بذلك إلاّ حين يناسبها ذلك. وهذا ما لا يناسبها على ما يبدو هذه المرّة.

وتعمّد أن يتأملها مجدداً من رأسها حتى أخمص قدميها ثم أشاح بنظره وكأنه غير مهتم لأمرها كلياً. ولم يتكرّم عليها بنظرة أخرى بل استدار وابتعد بخطى سريعة. بدا له وكأن الرحلة القصيرة إلى الباب لن تنتهي، لكنه رفض أن يدع نفسه يتردد، وكافح رغبة عارمة في أن يلقي نظرة واحدة إلى الخلف، ليرى ردّ فعلها على تجاهله لها.

إن كانت هذه مرسيدس ألكولار، فهو لا يريد أيّ علاقة بها.

- آه، تباً!

همست مرسيدس بذلك، وقد تعاظم غضبها من نفسها ومن ردّ فعلها

الغبي. وعادت تكرر: «تباً! تباً! تباً!».

لقد فعلتها مجدداً. تصرّفت بتلك الطريقة الغبية والسخيفة التي يبدو أنها تسيطر عليها دوماً في أسوأ الأوقات. كلما كانت غير واثقة من نفسها وغير مرتاحة، كلما شعرت بالانزعاج وكأنها سمكة خارج الماء، تتجمّد ملامح وجهها الغبي بهذه الطريقة إذا ما نظر إليها أحدهم.

كانت تعرف كيف تبدو. فقد لمحت صورتها ذات مرة، في مرآة ضخمة معلّقة فوق المدفأة الكبيرة في غرفة الطعام في منزل والدها. حينذاك، راعها ما رأت... وجعلها تشعر بالنفور. هل هذه المخلوقة صاحبة الوجه البارد والعينين الجليديتين هي فعلاً؟ لا بدّ أنها هي... فالمرأة التي رأتها ترتدي الثوب نفسه مثلها وتسرّح شعرها بالطريقة نفسها. إلاّ أن المرأة التي تظهر في الصورة تبدو متعالية، متعجرفة، كما تبدو وكأنها مصممة على تجميد كل من يجرؤ على الاقتراب منها.

لكن الواقع مختلف كلياً.

الحقيقة هي أنها خائفة في أعماقها. فهي لا تشعر بالارتياح في المناسبات الاجتماعية. وكلما عظم الحدث كلما دبّ الذعر أكثر في داخلها.

وهذا الحدث عظيم.

فقد أعلنت أنطونيا فيما كانتا ترتديان ملابسهما وتتحضران في الحمام الصغير في شقتها: «سيحضر الحفل كل أصحاب الشأن. فمارلون وهايدي ينظمان حفلات رائعة! ستقابلين بعض الشخصيات المعروفة والمشهورة في عالم الأعلام».

هذا الكلام كان كفيلاً بجعل أعصاب مرسيدس تتشنّج حتى قبل أن تغادر المنزل.

- ستبقين معي، أليس كذلك يا تونيا؟.

طرحت على صديقتها هذا السؤال بعد أن أنزلتهما سيارة الأجرة أمام مدخل ضخم وفتح لهما الباب خادم يرتدي بزّة.

وعادت تسأل: «لن تتركيني وحيدة؟».

فضحكت صديقتها وردّت: «بالطبع لا! لكن، لا تقلقي... فالحفل سيكون ممتعاً!».

ممتع ومسلٍ بالنسبة إلى انطونيا، هذا ما خطر لمرسيدس وهي تكافح لتبقى قريبة من صديقتها التي راحت تشق طريقها عبر سلسلة من الغرف الضخمة المكتظة بالضيوف. كانت انطونيا تتوقف من حين إلى آخر لتعرّفها إلى شخص ما، لكن ضجيج الكلام من حولهم كان عالياً، وحشود الناس كثيرة، ما جعل مرسيدس تعجز عن حفظ الأسماء قبل أن تتحركا مجدداً.

وما زاد الطين بلّة هو أنها أدركت أنها لم تفهم سوى نصف ما قيل من كلام. فبالرغم من أنّ لغتها الانكليزية جيدة، إلاّ أنها لم تتمكّن من التعامل مع الأسئلة المطروحة والتعليقات الضاحكة التي تعالت مع الموسيقى الصاخبة.

وفيما كانت في أسوأ حالاتها رفعت رأسها ورأت الرجل المستند إلى الحائط البعيد.

أليكس!

أول ما خطر في بالها هو أنه يشبه شقيقها أليكس. لكنها ما لبثت أن أدركت أنّ أليكس لا يمكن أن يتواجد هنا... كما أنّ هذا الرجل لا يشبهه إلى هذا الحدّ.

كان طويلاً، عريض المنكبين، وشعره بني اللون. أما عيناه، أو ما استطاعت أن تراه منهما لأنهما كانتا ضيقتين في تقييم حاد، فبدتا زرقاوين أو فاتحتي اللون بشكل لم تتوقعه. لكن الضوء خدعها للحظة أو لعله طوله أو لون شعره ما جعلها تعتقد أنه أليكس. فكل ما في هذا الرجل أنبأها بأنه لا يشبه أيّ شخص آخر. فهو هو نفسه بشكل كلّي ومتفرّد.

وما كان عليه مذهل، غامض، مدمّر بكل ما للكلمة من معنى ما جعله يبرز من بين حشود الأناس الأنيقين والوسيمين من حولها.

- تونيا؟.

www.elromancia.com

مدت يدها لتلامس ذراع صديقتها في محاولة منها للفت انتباهها.

- من...؟.

لكن الكلمات ارتجفت على شفتيها حين رأته يحدّق إليها مباشرة.

لم تكن نظرته وحسب بل الطريقة التي نظر فيها باتجاهها، نظرة باردة وبتقطية جعلت عينيه تضيقان، هي التي جعلتها تجمد. اقشعر بدنها حذراً في ردّ فعل قلق وغريب على تقطيبته المقيمة.

وعلى الفور، تحركت آليات الدفاع عن نفسها لديها.

لم تكن تعرف هوية هذا الرجل... أو لما يحدّق إليها بهذه الطريقة. كل ما تعرفه هو أنها لن تدعه يتحداها... وأنها مصممة على ألاّ تظهر له، ولو للحظة واحدة، كم أثرّ فيها، وإلى أيّ مدى يقلق راحة نفسها ويشوّشها.

شعرت بوجهها يشتدّ وكأنّ بشرتها جفّت فاشتدت لتغطي العظام. ثبتت حنكها غريزياً ما جعل فمها يبدو صارماً للغاية. ورفعت رأسها وذقنها في حركة تحدي.

إلاّ أنّ التأثير جاء خاطئاً كلياً. فقد لاحظت أنّ تعابير وجهه قست فجأة؛ كما لاحظت الازدراء اللاذع في نظرته التي شملتها من رأسها حتى أخمص قدميها.

شعرت أنّ تلك النظرة تصدر عليها حكماً. تقدّرها لتجدها دون المستوى المطلوب ولتصرفها وكأنها لا تستحق أبداً أيّ اهتمام.

وما إن أدركت هذه الحقيقة حتى استدار وابتعد، تاركاً إياها ترتجف وكأنّ تلك النظرة الحارقة تركت أثراً مادياً فعلياً عليها، وامتصّت القوة من ساقيها وانتزعت طبقة الجلد التي تحميها. شعرت أنها ضعيفة وسريعة العطب، كما أحسّت بالاستياء... وأكثر ما ساءها هو أنها لم تستطع أن تحدد سبب شعورها هذا.

- مرسيدس؟.

صوت تونيا اخترق مزاجها السيء والمرتجف.

- هل أنت بخير؟.

- ماذا... نعم... بخير.

وابتسمت ابتسامة مشرقة، ابتسامة أملت أن تكون مقنعة، ثم صرفت ذكرى تلك النظرة الباردة، المزدرية.

قالت في سرّها إنها ستنساه. ستنساه كلياً ولن تدعه يزعجها مجدداً. أمامها أسبوع آخر في انكلترا، ولن تدع رجلاً مجهولاً يفسد عليها رحلتها. فهذه الرحلة قد تكون المرة الوحيدة التي تكتشف فيها معنى الحرية. حرية الابتعاد عن قواعد الحياة الاجتماعية الاسبانية وقيودها.

يُفترض بها، أثناء وجودها هنا، أنّ تفكر في مستقبلها.. أو، على الأصح، المستقبل الذي يأمل ميغيل هرنانديز وعائلته أن تفكر فيه.

لقد خرجت مع ميغيل لفترة فأمل أن تتطور علاقتهما أكثر، وهذا ما يوافق عليه والدها طبعاً. فعائلة هرنانديز ثرية ومحترمة. وهذه فرصة جيدة ومناسبة لها... لم يقل والدها هذه الكلمات حرفياً، لكنها رأتها في عينيه عندما تحدّث عن ميغيل. إنما ما ارتسم على وجه والديّ ميغيل كان أكثر تعبيراً، فزواج ابنهما من ابنة خوان ألكولار الوحيدة حلم يتحقق بالنسبة إليهما. فهي الكنة الممتازة... الجائزة الكبرى في نظرهما.

ولهذا السبب، فرّت إلى انكلترا بحجة التفكير في المسألة. شعرت بالحاجة إلى الفرار من الضغط، ومن فكرة أنها جائزة في برنامج زواج، ولأنها لم تكن واثقة من أنّ مشاعرها نحو ميغيل تتعدّى الحنان، حاولت أن تستمتع قدر المستطاع في لندن... حتى الساعة.

- مرسيدس، انظري.

شدّت أنطونيا ذراع صديقتها، تلفت انتباهها وأردفت: «هناك... إنه...».

وفي خضم الضجيج، لم تسمع مرسيدس الاسم، لكنها عرفت الملامح الوسيمة لبطل أحد أحدث الأفلام الانكليزية الذي دخل لتوه إلى الغرفة، وقد تأبطت ذراعه فتاة شقراء، رائعة الجمال.

تنهدّت انطونيا ثم قالت: «أليس رائعاً!».

لم تجد مرسيدس ما تقوله، فاكتفت بالهمهمة. عليها أن تجد تفسيراً لما يجري ولما تشعر به والتفسير هو آخر ما تريد القيام به الآن.

لقد عاد الرجل. بشكل غير متوقع، عاد إلى الغرفة، وها هو يستند إلى الحائط على مسافة منها. وها هو يراقبها مجدداً. كان بإمكانها أن تشعر بنظرته المحرقة على بشرتها حتى من دون أن تجرؤ على النظر باتجاهه.

أضافت رغماً عنها عندما بدا جلياً أنّ صديقتها تنتظر منها رداً: «ليس النوع المفضل لديّ».

- لا بدّ أنك تمزحين. . من هو إذن؟ آه، مرسيدس، ليس هذا!.

وأصدرت صوت احتجاج مصدوم وغير مصدّق حين أومأت مرسيدس برأسها نحو الرجل الطويل، الغامض في بذلته الأنيقة الرمادية اللون. وكانت امرأة فاتنة، حمراء الشعر، قد شتتت انتباهه ما مكّن مرسيدس من النظر إليه من دون مخاطرة.

سألت بحدّة: «لِمَ لا؟ هل هو متزوج؟».

- مستحيل!.

وكانت تعابير وجه انطونيا أبلغ من الكلام.

- هذا جايك تافرنر. جايك من «تافرنر للاتصالات»، تافرنر.

وعندما نظرت إليها مرسيدس وقد بدا جلياً أنّ الاسم لا يعني لها شيئاً، أردفت: «وهو معروف أيضاً باسم جايك «الزواج ليس لي» تافرنر».

- هذا ما قاله أخي في الماضي.

وابتسمت مرسيدس وهي تفكر في زواج جواكين مؤخراً. . . وفي اعلانه وزوجته كاسي أنهما ينتظران طفلاً.

- لقد بدّل رأيه.

- حسناً، لا أعتقد أن جايك سيبدّل رأيه. فما من أحد يبقى معه بما يكفي ليؤثر فيه. سمعت أنه يتخلّص من. . .

وتبخرّت الكلمات المتبقية فيما تغيّرت تعابير وجه انطونيا فجأة. وعندما ألقت نظرة سريعة ثم أشاحت بنظرها على الفور، شعرت مرسيدس

برعشات ترقّب وخوف تجري على طول عمودها الفقري.

وهمست من زاوية فمها: «مرسيدس، لا تنظري على الفور. . . لكنه يتقدّم منا. . . يتوجه نحونا مباشرة!».

www.elromancia.com

٢ - من تحسب نفسك؟

قال جايك لنفسه إنه سيبقى بعيداً، وعلى الفور.

مرسيدس ألكولار تعني المشاكل بكل ما للكلمة من معنى.

لو لم يكن يعرف ذلك من مجرد انتمائها إلى الأسرة التي تكرهها أمها؛ وإلى الأب الذي تدّعي أنه هدم حياة أختها وحياتها هي أيضاً... فمجرد نظرة «من تحسب نفسك؟» أوضحت له الأمور من دون أن تنطق بأيّ كلمة.

إنها تجسد المشاكل وهو لا ينوي إثارة وكر الدبابير بالتعرّف إليها أكثر.

لكنه عجز ولسبب ما عن الالتزام بهذا القرار.

نظرة واحدة إليها جعلتها تتغلغل في فكره وتشغله. فقد انطبعت صورتها في عقله ولم يتمكّن من التحرر منها، كما لم يتمكّن من محوها من أفكاره أو الالتهاء عنها بأيّ شيء آخر.

وقد حاول ذلك.

حاول أن يغازل بعض النساء. وقد سنحت له فرص عدة ليتحدث إلى بعض أجمل النساء في العالم، وبدا أنّ معظمهن سعيدات بأن يلفتن انتباهه لأطول مدة ممكنة.

لكن جاذبيتهن كانت تذبل بسرعة ملفتة. وقد لاحظ وهو يتحدّث إليهن، أنه لا يرى وجوههن بل ملامح مرسيدس ألكولار الناعمة وعينيها الكبيرتين الداكنتين.

إلاّ أنه قال في سرّه إنه لن يفعل أيّ شيء في هذا الخصوص. وهو لن يعود إلى القاعة الرئيسية حيث لا تزال تتسكّع مع صديقتها. لا، فهو ليس

غبياً إلى هذا الحدّ.

وظنّ أنه أقنع نفسه. وبقي مقتنعاً بهذا حتى اللحظة التي وجد فيها نفسه وسط الغرفة المكتظة، يبحث بين الضيوف عن وجه محدد.

وعندما عثر عليه، شعر وكأنه عاد إلى موطنه.

- إذن، فقد رأيت زائرتنا الاسبانية الصغيرة.

ألقى بهذه الملاحظة الرجل الذي كان يتحدث إليه، رجل لم يعد يتذكر اسمه، فيما كانت عيناه تتأملان الجسد الرشيق، والشعر اللامع...

وحدها أجمل النساء وصاحبة الملامح الرائعة يمكن أن تسرّح شعرها بهذه الطريقة البسيطة، حيث شدّته إلى الخلف وشبكته كاشفة وجهها كلياً. بدت هذه التسريحة مذهلة على مرسيدس ألكولار، لكن رغبة ملحّة في فكّ شعرها وتركه ينسدل على كتفيها، تملّكته وعذّبته.

- إنها فاتنة أليس كذلك؟

افترض أنه ردّ بالإيجاب... أو لعله اكتفى بإصدار صوت غير واضح يمكن للرجل الآخر أن يعتبره موافقة إذا ما شاء ذلك. لكنه لا يعرف فعلاً كما أنه لا يكترث. فمن دون أن يدرك أنه اتخذ قراراً، بدأ يتحرك فجأة، شاقاً طريقه في الغرفة، متحركاً بين الجموع غريزياً لأنه لم يكن ينظر إلى مكان آخر سوى ذاك الوجه.

رأته قادماً نحوها.

رفعت رأسها وتركّزت عيناها الداكنتان الكبيرتان على وجهه فيما راحت تراقبه وهو يتوجّه نحوها. وانقبضت حنجرته وهو يتوقّع أن يرى ذاك التغيّر يعلو وجهها مجدداً. توقّع أن يرى ملامحها تجمد وذقنها يرتفع...

لكن هذا لم يحصل. ولم تتغيّر تعابير وجهها بتاتاً.

اكتفت وحسب بمراقبته... ببعض الحذر، وبعينين مغشيتين قليلاً.

لكنها لم تجمّده بنظراتها، ولم يعرف ما إذا كان عليه أن يشعر بالارتياح أم بالندم.

شعر بالارتياح لأنها لم تستدر وترحل، ولأنها لم ترفض التحدّث إليه أو تتجاهله على الفور. وشعر بالندم لأنه لن يستطيع التراجع بعد الآن. لقد انطلقت سلسلة من الأحداث وستأخذ الأمور مجراها مهما حدث. لم يهتم ما إذا جنّت والدته... أو باقي أفراد الأسرة. كما لم يأبه برأي أفراد أسرة ألكولار.

عليه أن يتعرّف إلى هذه المرأة وإلاّ سيجن.

- تونيا...

تكلّم أحدهم وأدرك أنها هي من فعل. انسلت هذه الكلمة الوحيدة من بين شفتيّ مرسيدس ألكولار، رغم أنها لم ترفع عينيها عن وجهه فيما هي تمد يدها لتلامس ذراع صديقتها في حركة دفاعية غريبة.

- تونيا...

قالت هذه الكلمة، فحوّل الصوت الناعم الأبح واللكنة الخفيفة هذا الاسم العادي إلى لفظة مختلفة كلياً.

كان صوتها جميلاً ككل شيء آخر فيها.

- أنت مرسيدس ألكولار.

خرجت هذه الكلمات منه من دون كياسة وبفظاظة، لكن هذا أول ما خطر في باله. إنها مرسيدس ألكولار وجلّ ما أراده هو التعرّف إليها.

- نعم.

أجفلت مرسيدس في سرّها حين سمعت صوتها الذي تحوّل إلى صوت ضعيف، مرتجف. بدت ضعيفة وسريعة العطب، وكأنها خادمة تردّ على سيدها، من دون أن تعرف سبب ما يجري لها.

عندما رأته يتجه نحوها، صممت على التماسك. وأقسمت على ألاّ ترتكب الخطأ نفسه هذه المرة. هذه المرّة لن تبعده... لن تعطيه عذراً كي يدير ظهره لها ويرحل، ويطردها من ذهنه.

أجبرت نفسها على مواجهته، حتى أنها حاولت أن تبتسم رغم أنّ الأمر تطلّب منها جهداً كبيراً. وبالتالي، اكتفت بمراقبته وهو يقترب.

النظرة في عينيه الفاتحتي اللون، والتصميم البادي على حنكه، جعلا فمها يجف وخفقات قلبها تتسارع، وأطلقا نبضاً قلقاً وغير منتظم في حنجرتها بحيث أنّ صوتها جاء عالياً حين حاولت أن تهمس لتونيا.

لكن صوتها اختفى الآن على ما يبدو.

شيء ما حصل لها حين تحدّث إليها.

لقد قال لها: «أنت مرسيدس ألكولار».

وخطر لمرسيدس أنّ الصوت العميق الأجش لا يمكن أن يكون لأيّ شخص آخر. وجاهدت لتخفي الرعشات التي امتدت على طول عمودها الفقري. لم تشعر يوماً بالانجذاب إلى اللكنة الانكليزية، إذ كانت تجدها سريعة جداً وقاسية بحيث تفتقر إلى الفتنة والاغراء. لكن صوت هذا الرجل جعلها تفكر في العسل الأسود، الحار وتملّكها شعور مفاجىء وسخيف بأنها انتظرت عمرها كله لتسمعه ينادي اسمها وتعرف كيف سيخرج من بين شفتيه.

شعرت بعقدة في معدتها.

لم ينطق اسمها كما اعتاد الانكليزيون أن يفعلوا، بل لفظه بلكنة اسبانية ممتازة، فبدت الكلمة وكأنها تداعب بشرتها. ابتسمت لا ارادياً في ردّ فعل سريع فرأت التجاوب في عينيه.

- هذا صحيح. اسمي مرسيدس ألكولار.

رأت رأسه ينحني بشكل طفيف فيما طافت عيناه الزرقاوان على وجهها في تقدير لجمالها.

- أنا جايك تافرنر. تربطك قرابة بخوان ألكولار... من شركة ألكولار المتحدة.

وتطلّب الأمر ثانية أو اثنتين لتدرك مرسيدس أنّ ما قاله لم يكن سؤالاً بل إقراراً بأمر واقع. إلاّ أنها كانت قد ردّت بإيماءة إيجابية.

- إنه أبي.

ارتدّ رأس جايك إلى الخلف بشكل طفيف وابتسم ابتسامة سريعة.

شيء ما في ابتسامته أقلقها للحظة. في الواقع، شيء ما في هذا الرجل أنذر حواسها، لكنها لم تجد سبباً وجيهاً لذلك.

أحسّت بأنه يكبح قوته ومشاعره بقساوة، كما أنّ السيطرة الكامنة خلف سحره الطبيعي والجذاب بشكل خطير أثارت أعصابها.

- هل ترغبين في شراب ما، مرسيدس ألكولار؟ أو لعلك ترغبين في الرقص؟.

- لا أعتقد أنك تعني ما تقول.

انطلقت الكلمات من فمها قبل أن تتمكن من كبحها، ما فضح خشيتها الداخلية وجعله يقطّب تخوّفاً.

- ما الذي لم أعنيه؟.

- ال-... الدعوة للرقص.

تمكّنت مرسيدس من أن تقول جملتها هذه، وقد لاحظت بألم الطريقة التي كانت انطونيا تحدّق بها إليها، بعينين جاحظتين، غير قادرة على أنّ تصدق طريقة تصرّف صديقتها.

- ولِمَ لا أعني ذلك؟.

- أحسست...

كيف لها أن تفسّر ما تفكر فيه...

تملكني شعور غريب... أو شعرت بأنّ ثمة شيء لم تقله...

أو يمكنها أن تقول ببساطة وبشكل مباشر: شيء ما فيك يخيفني.

كان ينتظر منها رداً. انتظر بهدوء وبصبر، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة باهتة، يتعذر تفسيرها، ما جعل مخاوفها تبدو غير منطقية. إلاّ أنها لم تتمكّن من التخلّص من هذه المخاوف.

- ظننت أنّ... في وقت سابق...

ترددت، فرأت تعابير وجهه تتغيّر مجدداً، فيما ظهر بريق جديد في تينك العينين الزرقاوين كما لو أنه، وعلى غرارها، يتذكّر ردّ فعله عندما رآته أول مرة.

قال: «في وقت سابق، تصرّفت بغباء. مزاج سيء... ليس إلاّ».

- والآن، لم يعد مزاجك سيئاً؟.

هذا أفضل. بدت الآن أكثر إنسانية، على طبيعتها بعض الشيء.

ويبدو أنّ جايك تافرنر ظن الشيء نفسه إذ ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة مذهلة. هذه الابتسامة جعلتها ترمش مصدومة فيما تراجعت قليلاً إلى الخلف ما جعل توازنها يختلّ.

وعلى الفور، مدّ يده وأمسك بها ليثبّتها، فتملّكها شعور لم تختبره من قبل. لمسة يده على ذراعها، راحة يده الدافئة والقوية على بشرتها ضربت كل خلية من خلاياها العصبية كالصاعقة، فتركتها حساسة وحارة.

- تمرّ عليّ ساعة واحدة في العام أكون فيها غبياً. لسوء الحظ، صودف أنك عرفتني في تلك الساعة، ولن يحصل هذا مجدداً.

- ليس قبل عام؟.

- لا... لذا، أمامك ثلاثمائة وأربع وستين يوماً أتصرف فيها بشكل حساس وطبيعي، فهلاّ رقصت معي؟.

ومن خلفه، استطاعت مرسيدس أن ترى بطرف عينها انطونيا وهي تشير لها بحماس وتومىء برأسها مشجّعة إياها على الموافقة. لكن وجه صديقتها وبقية الغرفة وكل من فيها تبخّر ولم تعد ترى سوى الوجه الذكوري والعينين الزرقاوين اللذين سمّرا نظرتها البنيّة بقوة خارقة.

قالت ببطء وبصوت استعاد قوته وعكس اقتناعها: «حسناً، نعم، سأرقص معك».

ومنذ تلك اللحظة، تحوّلت الأمسية إلى حلم، حيث أكثر الرجال سحراً وجاذبية ركّز اهتمامه عليها، مظهراً للجميع أنها أثارت اهتمامه، وأنه لن يدع أحداً يقترب من منطقة نفوذه.

كان الرقص جزءاً من الحلم.. الرقصة الأولى، ثم ما تلاها وقد تخلّت عن محاولاتها لعدّ الرقصات لكثرة ما رقصا.

شعرت وهي بين ذراعيه وكأنها شخص مختلف. شعرت بأنها جديدة

www.elromancia.com

وكأنها ولدت من جديد. . . لكنها هي نفسها في الوقت عينه. وأحسّت بدمها حاراً كالنار يجري في عروقها فيما رقص قلبها على وقع الموسيقى السريع. وفي نهاية السهرة، وعندما أصبح الايقاع أبطأ، أراحت خدها على كتفه، تتشمم رائحة بشرته الدافئة التي امتزجت برائحة عطره الناعم، فشعرت وكأنها ترقص في الهواء، من دون أن تلمس قدماها الأرض.

وعندما انتهت السهرة، رافقها جايك إلى سيارة الأجرة التي طلبتها انطونيا واكتفى بإلقاء تحية المساء عليهما، فيما كان يساعدها على الصعود إلى السيارة بكياسة إنما من دون ندم على ما يبدو. إنما، وقبل أن يغلق الباب، رفع يده ولامس خد مرسيدس بحنان. مجرد لمسة وحيدة، ناعمة ثم ابتعد، تاركاً بشرتها باردة فجأة وفارغة بشكل غريب حيث مرّ إصبعه.

قال لها: «سأراك مجدداً».

لم يقل «هل يمكنني أن أراك مجدداً؟» أو «متى يمكنني أن أراك مجدداً؟» بل «سأراك»، ثم استدار وابتعد ليختفي بين الحشود، فيما كانت مرسيدس تحاول أن تلتقط أنفاسها لتقول له: «لكني لم أعطك رقم هاتفي».

لكن، وفيما كانت الكلمات تتشكل في ذهنها، انطلقت سيارة الأجرة ولم يعد أمام مرسيدس سوى أن تلتفت إلى الخلف لتحدق إلى حيث كان يقف في محاولة يائسة منها لرؤيته مرة أخيرة.

قال جايك لنفسه إن عليه أن يضع حداً لهذا بطريقة ما. فأجبر قدميه على الابتعاد، ورأسه على عدم الالتفات، وعينيه على النظر إلى الأمام وعلى ألا تلتفتا إلى الوراء، ولو لمرة واحدة. إن نظر إليها مجدداً فسيضيع. عليه أن يكبح نفسه. . أو على الأقل أن يعمل على إبطاء احساسه بأنه على متن قطار سريع ينزل أكثر الهضاب انحداراً.

علم أنه واقع في المشاكل لا محال منذ وجد نفسه يتجه نحوها، فيما كل غرائزه تحذّره من أنّ عليه أن يتحرك في الاتجاه المعاكس. عليه أن يحافظ على المسافة التي لطالما فصلته عن عائلة ألكولار. لكن المشكلة أصبحت شخصية أكثر بالنسبة إلى جايك.

ما كان عليه أن يلمسها.

لم يكن ذلك كافياً. الاحساس بدفء بشرتها الناعمة الحريرية تحت يده عذّبه وأثار مشاعره. الامساك بها بين ذراعيه، جعل نبضات قلبه تتسارع بشكل مخيف.

وعندما انتهت الرقصة، كانت مشاعره ملحّة وغامرة بحيث أنه شعر بالارتياح حين توقفت الموسيقى وتمكّنا من الابتعاد عن بعضهما البعض.

إنما، ما إن افترقا حتى أدرك أنّ هذا الشعور أسوأ. كان بحاجة لأن يأخذ مرسيدس بين ذراعيه، أراد أن يحتضنها بشدة. لذا، حين عزفت الموسيقى مجدداً، اقترب منها وأمسك بها وراقصها، معرّضاً نفسه بذلك للعذاب نفسه مجدداً. . . فالابتعاد عنها أسوأ.

ولهذا السبب، لم يستطع أن يبقى ليراها ترحل. ولم يعانقها وهو يودعها، لأنه إذا ما فعل فلن يكتفي بعناق واحد.

- تباً وسحقاً!.

مدّ جايك يده إلى جيب سترته وأخرج هاتفه النقّال ليطلب بسرعة أحد الأرقام.

- جيسي؟ آسف على الازعاج في مثل هذا الوقت، لكني أحتاج إلى خدمة منك. أنطونيا ساندرز. . . الفتاة التي تعمل لحساب راديو آنكور. . . هل لديك عنوانها؟ أحتاج إلى عنوانها. . .

٣ - سيدتي العزيزة

- لديكِ خمس عشرة دقيقة تحديداً لتبدّلي ملابسك إذا ما رغبت في ذلك.

وجدت مرسيدس أنّ حصول جايك تافرنر على رقم هاتفها لم يشكّل له أيّ مشكلة. ولم يزعج نفسه بالاتصال بها أو بالطلب منها الخروج معه، بل كان في الليلة التالية عند عتبة منزلها، حاملاً لها دعوة على العشاء.

لا، كلمة دعوة ليست الكلمة المناسبة. ما قاله كان أشبه بالإنذار. إما أن تتناول العشاء معه... وإما لا شيء.

وبما أنها أمضت الليل بطوله تحلم به والنهار تكافح لتجعل أفكارها تتجه نحو أيّ شيء آخر غير جايك تافرنر، لم تتمكن من رفض اقتراحه لئلا تخسر كل شيء.

الخمس عشرة دقيقة بالكاد كانت كافية لتجهز. فخلعت بنطلون الجينز وقميصها وارتدت ثوباً زهرياً وأبيض، ثم وضعت بعض الظل فوق عينيها، ولمسة من الكحل ومسحة من أحمر الشفاه لتصبح جاهزة. علماً أنّ كان بإمكانها ألاّ تزعج نفسها إذ لم يعلّق جايك بأيّ كلمة عند عودتها. بدا أنه يركز اهتمامه على إخراجها من المنزل وإبعادها عن اهتمام انطونيا الجلي.

- إلى أين سنذهب؟.

طرحت سؤالها هذا لاهثة بعد أن صعدت إلى السيارة وابتعدا عن المنزل حيث شقة انطونيا. وتابعت: «أيّ مطعم اخترت؟».

- ما من مطعم. طلبت من متعهد طعام أن يحضّر لنا وجبة في منزلي.

صمتها عبّر بوضوح عن أمور لم يشأ أن يسمعها، إذ استدار بحدة

وسأل مقطباً: «هل من مشكلة؟».

- لا.. لا.

كافحت مرسيدس ليبدو ردّها مقنعاً. وقالت في سرّها إنها في إنكلترا الآن وليس في اسبانيا. وقد أوضحت لها انطونيا أنها تعتبر أسلوب حياتها المنضبط والطبيعي بنظرها، أسلوب قديم وبالٍ.

قالت انطونيا في إحدى الأمسيات بعد أن اعترفت لها مرسيدس بأنها تفتقر إلى الخبرة في التعامل مع الرجال: «لكني ظننتك مخطوبة فعلياً».

شرحت لها مرسيدس: «ثمة تفاهم بين أسرة ميغيل وأسرتي... إنهم يودون رؤيتنا متزوجين... لكن ميغيل لم يطلب يدي بعد، وأنا لم أعطه أيّ وعد».

- ولم...

حاجبا انطونيا المرفوعان كان أشدّ تعبيراً من أيّ كلام.

- لا، لم نفعل! الأمور لا تسير على النحو ذاته في بلادي. لقد تعانقنا بالطبع...

- حسناً، من الأفضل إذن أن تتوقفي عن الحلم بجايك تافرنر يا عزيزتي. صدقيني، فهو ليس من النوع الذي يكتفي بعناق.

وخطر لمرسيدس وهي تبتسم في سرّها أنّ ما لا تعرفه انطونيا هو أنها لا تعتقد أنّ بإمكانها هي أيضاً أن تكتفي مع جايك تافرنر بعناق.

- ما سبب هذه الابتسامة؟.

فاجأها جايك بسؤاله هذا، فقد كانت مقتنعة بأن اهتمامه كله منصبّ على القيادة في طرقات لندن المزدحمة، إنما بدا جلياً أنه لاحظ التعبير الذي ارتسم على وجهها.

- ألا تودّ أن تعرف؟.

- أنوي اكتشاف السبب.

- يمكنك أن تحاول.

أذهلت مرسيدس نفسها حين اكتشفت أنها قادرة على المغازلة، وألقت

من طرف عينها نظرة على وجهه، مبدية اعجابها بخطوطه القاسية. شعرت بإحساس غريب في معدتها، إحساس أسكرها وأبهجها.

وأدركت ما هو هذا الإحساس. إنه الحريّة.

إنها فكرة وجودها هنا في لندن، وحدها، متحررة، مستقلة، كحال أنطونيا. لم تعد في اسبانيا، تعيش حياتها كما خطط لها والدها، تتبع القواعد التي يضعها وتعيش بحسب معاييره.

لم تدرك من قبل كم أنّ هذه القواعد ثقيلة ومضجرة. كما لم تدرك يوماً كم كانت حياتها مقيّدة ومحصورة.

في اسبانيا، ما كانت لترتاد حفلات كتلك التي اصطحبتها انطونيا إليها. ما كانت لتلتقي رجلاً كجايك تافرنر. هذه الفكرة جعلتها تشعر بدوار من الإثارة والتوقّع.

- قد تضطر لاستخدام العنف لتحصل مني على اعتراف.

- لا أظن أني قد أحتاج لذلك.

وجاءت ضحكة جايك خافتة ومثيرة.

- أفكر في طرق أخرى يمكن أن أستخدمها لإقناعك.

تلك الضحكة أرسلت ذبذبات أشبه بتيار كهربائي على طول عمودها الفقري، ذبذبات ازدادت قوة عندما فكرت في ما قد يعنيه بكلامه.

- ما هي هذه الطرق؟.

توقّفت السيارة عند الإشارة الضوئية، فاستغل جايك الفرصة ليرمقها بنظرة خطيرة وساخرة.

- أنا واثق من أنّ بإمكاني إيجاد شيء ما...

نبرته حملت وعداً وتهديداً، امتزجا بالمشاعر المتقلّبة التي جاشت في داخلها، مشكّلة مزيجاً متفجراً. مزيج لم تستطع أن تحدد ما يغلب فيه، أهو الحذر أم الإثارة أم الخوف.

- أنا واثقة من أنك قادر على ذلك.

تبدّلت الإشارة فيما كانت تتكلم، فتحرك جايك بالسيارة، حركة

قدمه على دوّاسة البنزين جعلت عضلات ساقه القوية تشتد وتسترخي فجرى الدم حاراً في عروق مرسيدس.

- هذا كثير بالنسبة إلى ما خططت له لهذه الأمسية.

- وما هي خططك؟.

- وما هي خططك؟.

قلّد جايك لكنتها ثم أضاف: «سنتناول العشاء بالطبع... ماذا خطر لك خلاف ذلك؟».

هل هي بريئة بقدر ما يبدو عليها؟ تساءل عن ذلك وهو يرى الاحمرار يغزو خدّيها فجأة. أيّ شخصية هي شخصية مرسيدس الحقيقية؟ المرأة الجميلة المتعالية التي رمقته بنظرة باردة عندما رأته لأول مرة؛ المغازلة العابثة التي دمرت رباطة جأشه في ثانية، أم الفتاة الشابة الخجول التي احمرّت حياءً عندما ضايقها قليلاً؟.

سيسرّه أن يكتشف ذلك. المشكلة الوحيدة هي في أن يتمكّن من إبقاء يديه بعيدتين عنها بما يكفي ليعرفها على حقيقتها.

سيركز جيداً على أمور أخرى. عليه أن يفعل ذلك، وإلاّ ستنتهي السهرة قبل أن تبدأ.

حقيقة هويتها حملت تعقيدات يمكن أن تجعل ليلة واحدة معها تكلّفه أكثر مما هو مستعد لدفعه. لذا، من الأفضل أن يلتزم الحذر... وأن يتقدم خطوة خطوة... وأن يتأكد من أنه لن يتسبب بالمشاكل لنفسه إذا ما أقدم على شيء ما قبل أن يتحقق أولاً من كافة التعقيدات الممكنة.

لم يكن الأمر سهلاً لكنه تمكّن من أن يبقي يديه بعيداً عنها خلال العشاء. المشكلة أنّ مرسيدس ألكولار هي الإغراء مجسّداً. ابتسامتها، ضحكتها، حركاتها المغرية، رائحة عطرها في الجو شكّلت إغراء لحواسه الجائعة. طريقة أكلها واستمتاعها بالطعام، كانا إغراء بحدّ ذاته. ووجد نفسه ينحني مراراً وتكراراً إلى الأمام، مستغلاً كل فرصة ليقدّم لها بعض الطعام اللذيذ.

واقتربت مرسيدس أكثر فأكثر. كانت تجد دوماً حجة ما... أن يملأ لها كأسها بسهولة... أن تبتعد عن بقعة خلّفتها المياه التي انسكبت... فانتهى بها الأمر جالسة إلى جانبه، عند زاوية الطاولة... قريبة جداً، جداً منه بدلاً من أن تكون قبالته.

عندئذٍ، لم يعد قادراً على تمالك نفسه أكثر. واستسلم للرغبات البدائية التي اختلطت بدمه منذ أن فتحت له الباب، فانحنى إلى الأمام، وأخذها بين ذراعيه ليعانقها عناقاً طويلاً، وبطيئاً.

رمشت بعينيها مرة واحدة فقط، فأغمضت عينيها البنيتين للحظة قبل أن تفتحهما مجدداً وتنظر إليه مباشرة.

سألت وقد بدا صوتها الخفيض الموسيقي، أجش وغير مستو بشكل غير متوقّع: «وما سبب هذا؟».

* * *

اعترفت مرسيدس لنفسها بأنها أخطأت الفهم. لقد قرأت الإشارات بشكل خاطىء وأساءت تفسير كلماته وتصرفاته.

لقد أقنعت نفسها بغباء وسخافة بأن جايك تافرنر مهتم بها حقاً كامرأة، في حين أنه بعيد كل البعد عن ذلك.

وراحت تفعل ما في وسعها لتشجّعه، فابتسمت وضحكت وغازلت. ضحكت لكل النكات التي رواها واستمعت بانتباه إلى كل قصصه ونظرت إلى عينيه عبر الطاولة. وتحركت عمداً لتقترب منه بأيّ حجة، حتى أنها ارتطمت عمداً بكأس الماء كي تنسكب فتبتعد عن المكان المبلل... باتجاه المكان الذي اختاره جايك للجلوس.

وكل هذا لم يكسبها شيئاً.

كان مهذباً، لطيفاً، مسلّياً... ليس إلاّ. حرص على أن تجد أمامها كل ما ترغب في تناوله، كما ركز على كل ما تقوله... لكنها كانت واثقة من أنه سيتصرف على هذا النحو مع أيّ شخص.

أجابها جايك: «وهل من حاجة لسبب؟ أردت أن أفعل ذلك. لماذا؟

ألم يعجبك ذلك؟».

ادّعت أنها تفكّر في المسألة للحظة، وعيناها لا تزال متشابكتين بعينيه، وأدركت أنه رأى الوميض الذي لمع في عينيها الداكنتين... بريق عكس إثارة متعمّدة.

همست: «نعم، أعجبني. كان العناق لطيفاً، لكنني كنت آمل في أكثر».

- أحقاً؟ ماذا كنت تأملين تحديداً؟ شيء كهذا؟.

وانحنى إلى الأمام، وضمها بين ذراعيها مجدداً، بقوة أكبر هذه المرّة، ضاغطاً ذراعيه حولها.

كان عناقه من الاتقاد بحيث سمع أنفاسها تتقطع في ردّ فعل متفاجىء. لكنها ما لبثت أن تمالكت نفسها وبادلته العناق بحماس، ورغبة ومن دون تحفّظ.

كان الأمر أشبه برمي عود ثقاب في كومة من القشّ اليابس، وأصبح بإمكانه الآن أن يتراجع ويراقب ألسنة النار تستعر وتجتاح ما حولها، مضطرمة، متعاظمة، يصعب إطفاءها وهي تقودهما نحو حريق هائل يمكن أن يبتلع كل ما يعترض طريقه في ثوانٍ.

لم يختبر مثل هذا الشعور من قبل. ولم يعرف يوماً امرأة تتجاوب معه بهذه الطريقة... كما لم يكن يعلم أنه قادر على التفاعل مع أيّ امرأة بهذا الشكل.

همس وهو يلتقط أنفاسه: «مرسيدس... سيدتي...».

لكن هاتين الكلمتين كانتا كل ما تمكّن من قوله. ولم تجبه مرسيدس. لم تجبه بالكلام على أيّ حال. لكن قوة عناقها أسكتته وسرقت أيّ قدرة لديه على التفكير بشكل منطقي.

وفي هذه اللحظة، أدرك أنه لا يهتم بماضيها وخلفيتها، أو بأبيها، أو بالمشاكل التي قد تحملها معها، أو بأيّ شيء آخر. كل ما يريده هو الحصول على هذه المرأة... التعرّف إليها، معانقتها... سيدفع أيّ ثمن. ويتحمّل

أيّ مخاطرة. . .

شعرت مرسيدس بأن أفكارها تذوب من تأثير حرارة الدماء التي تجري حارة في جسدها. وأحسّت بأنها غير قادرة على الحركة أو السير، فساقاها عاجزتان عن حملها.

همس في أذنها: «سيدتي، أنت مذهلة. . .».

وعانقها مجدداً قبل أن يضيف: «أتعلمين ماذا تفعلين بي؟».

ردّها الوحيد كان ضحكة مرتجفة، إذ لم يعد بإمكانها أن تنكر تأثيرها فيه. بادلته العناق بشغف أفقده عقله، وغابا في عالم من الأحاسيس المتقدة والجارفة.

- جايك، حبيبي. . . جايك، عزيزي. . . جايك. . .

وفي خضم هذيانها، همست هذه الكلمات بلغتها الأم. ولم يكن عدم فهم لغتها ما جعله يبتعد عنها فجأة، ويرفع رأسه، فيما عيناه اللامعتان تنظران إلى وجهها الأحمر.

وللحظة، لم تفهم ما يجري، ثم شقّ الصوت طريقه إلى أذنيها عبر دقات قلبها المتسارعة. هزّت رأسها بحدة وقالت بصوت متقطع: «أجب. . . هيّا. . . لعل الاتصال هام».

- لا.

اعترضت وهي ترتجف: «ارفع السماعة. . . لكن لا تطل الغياب».

راحت الإثارة المسكرة تزول بسرعة، لتتركها مرتجفة باردة. . . وغير واثقة من نفسها كلياً.

- لن يتطلب الأمر سوى لحظة يا عزيزتي.

وعانقها مجدداً، لكن هذا العناق جعلها، ولسبب ما، تدرك مدى تهوّرها.

- سأعود على الفور. .

لم يتردد، لم يلتفت إلى الخلف وهو يغادر الغرفة، فاكتفت مرسيدس بمراقبته وهو يبتعد. فتحت فمها مرة لتناديه، لترجوه ألاّ يتركها، ولو

لثانية، لكن صوتها لم يطاوعها ولم يخرج من حلقها أيّ صوت.

لم تشأ أن يذهب. . . لم تشأ أن يتركها، فما إن خرج حتى تسللت الحقيقة الباردة إلى الغرفة، لتبث الصقيع في جسمها وتخفض معنوياتها إلى أقصى حدّ.

ما الذي تفعله؟.

ما هذا الجنون الذي تملّكها؟.

كيف وصلت إلى هذا، وهكذا. . . مع رجل بالكاد تعرفه؟.

عندئذٍ، ومن غياهب ذهنها، من حيث أخفت ذكرياتها في خضم الجنون الذي تملّكها منذ عانقها جايك. . عاودتها ذكرى، جعلتها ترتجف مصدومة.

«عديني بشيء ما. .».

تردد الصوت الحبيب في رأسها، صوت لم تسمعه في الواقع منذ سنوات لكن ذكراه لا تزال تتردد في ذهنها كأغنية تعشقها. . صوت أمها.

«عديني يا عزيزتي بألاّ تستسلمي إلاّ للرجل الذي تحبين. عديني بألاّ تهدري عذريتك على شخص لا يستحقها».

ما الذي تفعله؟ لِمَ بقيت هنا. . . تنتظر رجلاً لا يحبها، ولا يعرفها حتى، ليعود و. . .؟.

لم تتمكّن من إنهاء الفكرة. فقد اكتسحتها موجة من الذعر، جعلتها تهب واقفة وتتجه بسرعة نحو الباب.

كان جايك في مكان ما في المنزل، إذ استطاعت أن تسمع صوته. لم تتوقف لتفكّر أو حتى لتتنفس، بل تحركت بقدر ما استطاعت من السرعة، من دون أن تثير أيّ ضجة.

بعدئذٍ، اندفعت وهي تحمل حذاءها في يدها، إلى غرفة الجلوس حيث تركت حقيبتها.

بالكاد كان الوقت كافياً.

وفيما كانت تفتح الباب الأمامي، سمعت صوت جايك يتساءل: «ما

الذي . . . ؟ مرسيدس؟ مرسيدس، أين . . . ؟».

لم تسمع آخر السؤال وهي تصفق الباب خلفها.

أخذت نفساً عميقاً مذعوراً، من دون أن تجرؤ على الالتفات إلى الخلف لئلا تراه يقف عند عتبة الباب أو يلحق بها، ثم راحت تركض مبتعدة، ولم تبطىء إلاّ حين ابتعدت عن الأنظار وبعد أن انقطعت أنفاسها.

٤ - رسالة من مجهول

كانت الرسالة على ممسحة الأرجل عندما وصل جايك إلى المنزل بعد يوم طويل وشاق.

يوم طويل ومزعج للغاية بحيث داس جايك على المغلف وسحق أناقته تحت قدمه قبل أن يلاحظه. لم ينظر إلى الأسفل ويدرك ما هو إلاّ حين سمع خشخشة الورق.

- آه، تباً!.

هذا شيء آخر يُضاف إلى مزاجه المعكّر أصلاً. جلّ ما أراده هو حمام ساخن ويضع ساعات من النوم. لكنه افترض أنّ من الأفضل أن يلقي نظرة على هذا المغلف بما أنه رآه.

- من . . . ؟.

اختطف الرسالة، وقلّبها ثم تأمّل العنوان والطابع البريدي غير المألوف وأطلق شتيمة أخرى، إنما بصوت أعلى هذه المرّة.

رسالة من اسبانيا هي آخر ما يحتاجه الآن.

رسالة من اسبانيا جعلته يفكّر في مرسيدس ألكولار اللعينة وعائلتها المتكبّرة، المتعجرفة.

باستثناء رامون طبعاً. ولا بدّ أنّ ابن خالته هو من أرسل هذه الرسالة.

لكن مزاجه لا يحتمل حتى رسالة من رامون. كان الحمام الساخن يغريه، فهو بحاجة لغسل ذكرى هذا اليوم والتخلّص منها.

- آسف يا صديقي . . . ربما في وقت لاحق.

ورمى المغلف على الطاولة في البهو ثم توجه إلى الحمام وهو يفك ربطة عنقه.

هذا الحل لم ينجح.

فبالرغم من أنه وقف طويلاً تحت المياه الدافئة المتدفّقة، وتركها تنسكب بقوة على رأسه وكتفيه، وتقرع على جمجمته، إلاّ أنها لم تستطع أن تمحو الانزعاج الذي عرفه اليوم والإهانة الأخيرة المذلّة التي جعلته يعود إلى البيت والغيظ والغضب يتآكلانه. لا بل ساءت الأمور أكثر، إذ تسنّت له الفرصة ليقف ويفكّر ويتذكر فأطبق أسنانه بإحكام حتى شعر بألم في حنكه. أما اهتياجه الصامت فجعل دماءه تغلي لتصبح أشد سخونة من مياه الحمام.

لم يكن اليوم وحده سبب ما هو فيه. لقد بدأ كل هذا منذ اللحظة التي كان فيها من الغباء بحيث ترك مرسيدس ألكولار تشغل ذهنه وتتغلغل في مسام جلده.

خرج من الحمام وتوجّه إلى غرفة نومه حيث عاودته الذكريات على الفور ولفّته ما جعله يطبق أسنانه بقوة أكبر.

أوى إلى الفراش، لكنه لم يتمكّن من النوم.

- تباً لها! تباً وسحقاً لها. ليتني أستطيع أن أصل إليها...

ظنّ أنه سيجنّ حين عاد إليها بعد ذاك الاتصال السريع، المزعج.

لم يخطر له أنها لن تنتظره، فقد بادلته شوقه بشوق، وعناقه بعناق أكثر جرأة.

لم يظن أنه سيطيل الغياب. وقطع المسافة إلى الغرفة لم يتطلب منه سوى ثوانٍ، وهو واثق من ذلك. لكن، عندما فتح الباب، أدرك على الفور أنّ ثمّة خطأً ما.

أول ما أدركه هو الصمت الذي لفّه. الصمت والسكون المطبق في الغرفة... الاحساس بالفراغ.

وقف جامداً عند العتبة، غير قادر على تصديق عينيه.

- ماذا...؟.

خرجت الكلمات من فمه بنبرة مصدومة وغير مصدّقة.

- مرسيدس؟ مرسيدس، أين أنت؟.

صوت الباب وهو يُصفق قاطع كلماته وأذهله. لكنه في تلك اللحظة، لم يربط بينه وبين اختفائها.

ظن أنها لا تزال في المنزل، كالغبي وكأبله أعمى كلياً، حتى أنه بحث عنها في الحمام. فتح الباب على وسعه وحدّق إلى الحمام متوقعاً أن يجدها فيه تغسل وجهها أو تفعل أيّ شيء آخر.

- مرسيدس، ما الذي...؟.

لكن الغرفة كانت فارغة أيضاً. وعندئذٍ، ربط صوت الباب المصفوق في الأسفل مع الصمت المطبق في الغرف.

ظنّ أنّ من السهل أن يلحق بها، ويوقفها ويطالبها بتفسير، لكنه لم يجد أثراً لها. لقد اختفت في الليل كسندريللا العصر الحديث، من دون حتى أن تترك خلفها أيّ أثر كفردة حذاء.

لكنها تركت خلفها شيئاً أكثر قيمة، هذا ما تذكّره جايك وهو يرتدي سروال جينز، وعيناه تتأملان الوشاح الحريري الأزرق الذي لا يزال على خزانة الأدراج الخشبية. هذا الوشاح الصغير الذي لا يفارقها أبداً، كما أخبرته لأنه هدية من أمها المتوفاة.

وسمح لنفسه أن يبتسم ابتسامة رضا صغيرة وهو يرتدي قميصاً أسود ويسوّيه.

يوماً ما، سيلتقي مرسيدس الكولار مجدداً، وستكون هذه القطعة النسائية سلاحه الرئيسي في الانتقام الذي يخطط له.

الانتقام!

ترددت الكلمة في ذهنه وهو ينزل السلالم.

لم يخطر له يوماً أنه رجل يحب الانتقام ويسعى خلفه. وفي الأمس، عندما عثر على الوشاح على السجادة الزرقاء، الوثيرة، لم تخطر في باله أيّ

فكرة أخرى. أول فكرة خطرت له عندما اكتشف أنها فرّت منه، هي الاهتمام والقلق.

همس لنفسه: «أيها الأبله! ظننت أنها قد تكون غاضبة ومنزعجة!».

خرج خلفها يبحث عنها لبعض الوقت، حتى أنه ناداها، لكنه اضطر في النهاية إلى الاعتراف بهزيمته وعاد إلى المنزل. وكان ينوي العثور على رقم هاتف صديقتها انطونيا حين قاطعته زيارة غير مرحب فيها.

في البدء، وعندما سمع صوت المفتاح يدار في القفل، ظن أنّ مرسيدس عادت، ليتذكر على الفور أنها لا تحمل مفتاحاً لبيته. والشخص الذي يملك مفتاحاً هو كارين مايتلاند، المرأة التي كانت صديقته حتى أسبوع خلا.

والمرأة التي لا تزال تظن أنها صديقته رغم تأكيداته المخالفة لذلك. وقد طالبها بإعادة مفتاح البيت إنما يبدو أنها احتفظت بنسخة عنه. وها هي تدخل إلى المنزل وكأنها تملك كل الحق في التواجد هنا.

وما إن فتحت الباب حتى نادت: «جايك! عزيزي... لقد عدت. خرجت باكراً فجئت إلى هنا مباشرة لرؤيتك. أحتاج إلى حبك بشدة. هل اشتقت إليّ حبيبي؟».

كشّر جايك لهذه الذكرى وارتمى في كرسي، يحدّق بضجر إلى المدفأة. لطالما كانت كارين من النساء اللواتي يتعلقن برجالهن بشدة، وحين قرر وضع حد لعلاقتهما، هذه العلاقة التي لم تقد إلى شيء منذ بعض الوقت حضّر نفسه للمشاهد الدرامية التي ستقوم بها، من دموع واعتراضات وتوسلات، وقد تفاجأ صراحة حين لم يحدث هذا كله. وظنّ أنها تقبّلت ما لا مفرّ منه بطيب خاطر.

واضطر الليلة الماضية إلى الاعتراف بخطئه.

الليلة الماضية، اضطر لمواجهة الثورات ونوبات الغضب التي توقّعها في بادىء الأمر. والليلة الماضية، لم يكن في مزاج يسمح له بلعب دور الشاب اللطيف أو حتى بمحاولة تهدئتها.

اكتسحه الألم، وبقي رأسه يدور من الارتباك، يتساءل عما حدث في

الدقائق القليلة التي ترك فيها مرسيدس وحدها. وبما أنّ أفكاره وحواسه مشغولة بامرأة واحدة، وجد صعوبة في أن يركز انتباهه على المشهد الهستيري التي تحدثه امرأة أخرى.

وجاء اعترافه مختصراً. أخبرها بصراحة تامة أنّ علاقتهما انتهت وطالبها بمفتاح منزله، ما جعلها تذرف مزيداً من الدموع.

وعندما تمكّن أخيراً من إخراجها من الباب، ومن دون المفتاح، لم يعد قادراً على التفكير إلاّ بالوصول إلى الهاتف والاتصال بشقة انطونيا.

وما إن رُفعت السماعة حتى سأل: «هل مرسيدس هنا؟».

- إنها... من المتحدّث؟.

ظهر شك مفاجىء في الصوت في الطرف الآخر من الخط.

- أنا جايك تافرنر.

وفيما كان يتكلم، سمع همساً في شقة انطونيا، لم تخفِ اليد الموضوعة على السماعة.

- قولي لمرسيدس إني أريد التحدّث إليها!.

تكلّم بحدّة بعد أن تبخر قلقه حين تأكّد من أنها بخير وأمان. وبعد القلق، تدفّق الغضب والإحباط والخيبة في عروقه بسبب الطريقة التي تصرّفت فيها.

- لا تريد أن تتحدث إليك.

- انطونيا، أو مهما كان اسمك...

كان صوته خطراً، فخرج كالفحيح من بين أسنانه التي صرّها ليمنع عصبيته التي راحت تشق طريقها إلى الخارج.

وتابع يقول: «... أخبريها أني أريد التحدث إليها!».

- إنها لا تريد التحدّث إليك!.

ألا يمكن لهذه الفتاة أن تقول أيّ شيء آخر.

- قولي لها...

لكنه لم يتمكّن من إنهاء جملته، إذ أقفلت السماعة بقوة في الجهة

www.elromancia.com

الأخرى قاطعة عليه حديثه.

وعندما حاول إعادة طلب الرقم، وجد الخط مشغولاً رغم محاولاته المتكررة.

كان أبله للغاية!

أنزل جايك يده بقوة على ذراع الكرسي، قبضته المطبقة بإحكام ومفاصله المبيضة تعكس مزاجه العنيف.

لم يدرك حينذاك كم كان مخدوعاً. ولم يكتشف ذلك إلاّ تلك الليلة... عندما قصد شقة انطونيا في محاولة منه للتحدّث إلى مرسيدس.

وكانت محاولته فاشلة.

كانت في المنزل بالطبع. لم يرها، لكن صديقتها لم تحاول حتى أن تخفي حقيقة أن مرسيدس في مكان ما خلفها، بعيدة عن الأنظار خلف الباب الذي بالكاد فتحته. راح جايك يتخيّلها واقفة هناك، تستمع إلى حوارهما، وتبتسم في سرّها زهواً بنفسها فيما انطونيا تصرفه. ولا بدّ أنّ ابتسامتها اتسعت أكثر حين سددت إليه صديقتها الضربة الأخيرة.

- طلبت مني أن أقول لك إنها توقّعت شيئاً أفضل، نظراً لسمعتك. لذا، لم تشأ أن تضيّع مزيداً من الوقت عليك.

«لم تشأ أن تضيّع مزيداً من الوقت عليك».

أرجع جايك رأسه إلى الخلف وأغمض عينيه عندما تذكّر هذه الكلمات.

كم كان أحمق!

الأمر الوحيد الذي لم يخطر له، الأمر الوحيد الذي لم يفكّر فيه في كل هذا، هو أنّ مرسيدس يمكن أن تستغله. مجرد رؤيتها أفقدته توازنه وجعلته يتجاوب بشدة معها، بحيث أنه لم يتوقّع ألاّ تبادله الشعور نفسه. في الواقع، أشارت تصرفاتها إلى أنّ الشعور نفسه خامرها.

وراح يعيد النظر في ما جرى من وجهة نظر مختلفة تماماً. من وجهة نظر باردة وتحليلية. الإدراك المتأخر، المترافق مع ذكرى النظرة الباردة والمتعالية

التي رمقته بها حين رآته لأول مرة، أضفى على الأحداث طابعاً مختلفاً وأعطاها تفسيراً مغايراً.

مرسيدس ألكولار تهوى الإثارة. إنها أنانية، استفزازية، عديمة الحياء، ولعوب. لم يزعجها أن تسعى لإثارة رجل... لتتركه بعدئذٍ بكل برودة.

برودة تامة.

لكن المشكلة تكمن في أنّ نيران التي أشعلتها في داخله لا تزال تستعر، تحت إحساسه بأنها تخلت عنه، واستغلته، ثم تركته يسقط من علو شاهق. إنه يكرهها، إلاّ أنه لا يكرهها بما يكفي لئلا يرغب في رؤيتها مجدداً.

كره اللعبة التي لعبتها، إلاّ أنه قد يدفع أيّ ثمن لتعود إليه وتلعب معه هذه اللعبة من جديد.

شعر بالاشمئزاز من شخصها، ومن الحقيقة الفاسدة المخفية خلف جمال وجنتيها العاليتين، ونعومة بشرتها، ولمعان شعرها وعينيها، إلاّ أنه أدرك أنها إذا ما ظهرت هنا مجدداً، في هذه الغرفة وفي هذه اللحظة، لوقع تحت تأثير جمالها على الفور، ولما حاول حتى أن يقاومه.

- تباً!

إنه يحتاج لما يلهيه.

إنه يحتاج لما ينسيه تينك العينين.

إنه يحتاج لما ينسيه اسمه وليس فقط مرسيدس ألكولار. يجب أن ينسى صورتها وهي بين ذراعيه، صورتها وهي تبادله العناق بشغف وحرارة.

صورة أدرك الآن أنها مجرد كذبة.

هبّ واقفاً وتوجّه إلى المطبخ ليعدّ لنفسه فنجاناً من القهوة. وليصل إلى المطبخ، كان عليه أن يجتاز البهو، فلاحظ مرة أخرى المغلف الطويل الذي تجاهله عند وصوله ورماه على الطاولة.

قد يفتحه ليرى ما لدى رامون ليقوله.

الرسالة التي توقّعها لم تكن داخل المغلف. وبدلاً منها، وجد بطاقة

مطبوعة بشكل جميل، أرسلها إليه شخص لم يسمع به يوماً.

- من هو الفريدو مدرانو هذا؟.

تصفّحت عيناه الكتابة الأنيقة بسرعة ثم توقّف مذهولاً ليعود ويقرأ النص مجدداً إنما ببطء أكبر.

«الابنة استريللا... زواج من رامون داريو...».

رامون سيتزوّج! لم يأتِ ابن خالته على ذكر هذا الموضوع حين التقيا آخر مرة. لكنه عاد واعترف بأنه لم يتحدّث إلى رامون منذ أشهر عدة، كما لم يتمكّن من تمضية بعض الوقت معه.

والآن، ومن حيث لا يدري، سيتزوج رامون من امرأة تدعى استريللا مدرانو، امرأة لم تكن في حياته حين التقيا آخر مرة. فلو كانت في حياته، لأتى رامون على ذكرها.

كان جايك على وشك أن يضع الدعوة على لطاولة، حين تجلّت له فكرة مفاجئة جعلته يقف جامداً، يضرب المغلف على ظاهر يده وهو يفكّر في الأمر.

رامون سيتزوّج. سيكون الزواج عائلياً... زواج يقتصر على أسرة ألكولار. وبسبب شعور العداء الصريح بين عائلة خالته وعائلة الرجل الذي تبيّن لاحقاً أنه والده، سعى رامون إلى فصل الأسرتين عن بعضهما البعض كلياً... لذا، لن يتوقّع أحد أن يظهر ابن خالة رامون في العرس بشكل غير متوقّع.

ولا سيّما ابنة ألكولار الوحيدة.

رفعت تكشيرة واسعة زاويتي فمه، لتتحوّل إلى ابتسامة رضا شرير.

يبدو أنه مقدّر له ولمرسيدس ألكولار أن يلتقيا مجدداً، أسرع مما توقّع... وهذه المرّة سيكون عنصر المفاجأة حليفه.

٥ - هل التقينا من قبل؟

بالنسبة إلى يوم بدأ بشكل جيد وسعيد، تحوّل زواج شقيقها إلى حدث مزعج ومربك، هذا ما حدّثت به مرسيدس نفسها وهي تحاول مجدداً أن تشق طريقها عبر القاعة الأنيقة والكبيرة حيث يقام حفل الزفاف، من دون أن يلاحظها شخص معين.

آخر رجل على الأرض توقّعت أن تراه في هذا الحدث الخاص.

آخر رجل على الأرض أرادت أن تراه في أيّ مكان، وفي أيّ وقت.

وعندما ظنت أنها بدأت تضع ذكرى تلك الأحداث في لندن خلف ظهرها.

لقد تسلّت وهي تساعد عروس شقيقها على الاستعداد للعرس، ولم تتركها إلاّ في آخر دقيقة، بعد أن أصرت استريللا على ألاّ يرى أحد، أيّ أحد، ثوبها حتى تصل إلى الكنيسة.

أثار الثوب ضجة، سواء في الكنيسة أو خارجها، فالكل تحدّث عنه ولم يكفّوا عن ذلك. لكن مرسيدس كانت في حالة تمنعها من الاهتمام بما يدور من حولها، بعد أن غرق عقلها في حال من الارتياع حين أدركت أنّ جايك تافرنر بين المدعوين إلى الزفاف. رؤيته كانت أشبه بسهم يصوّب إلى قلبها، فيشق طريقه عبر اللحم الحساس ويفتح باب الذكريات المذلّة التي لم تشأ أن تستعيدها.

- لِمَ كل هذا الاهتمام بالرجل الانكليزي يا أختي العزيزة؟.

صوت شقيقها أليكس قاطع أفكارها غير السعيدة، فيما ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة أظهرت أسنانه البيضاء في وجهه الأسمر.

- لا تقولي إنك...
- لا!.
صرخت مرسيدس بذلك قبل أن يتمكّن أليكس من طرح السؤال عما إذا كانت مهتمة بالرجل الانكليزي... كرجل.
لكن السؤال جعلها تدرك كيف وقفت تحدق إليه من مكانها الآمن خلف العمود الكبير في جانب قاعة الرقص المزدحمة. وشعرت مجدداً بذلك الذعر الغامر الذي اكتسحها ما إن وصلت إلى الكنيسة ورأت جايك تافرنر لأول مرّة.
كان يقف في باحة الكنيسة، يتحدث إلى رامون ويضحك لشيء ما قاله شقيقها. كان رأسه الداكن الشعر مرتداً إلى الخلف، وعيناه شبه مغمضتين، وشعره البني الداكن يلمع تحت ضوء شمس بعد الظهر الدافئة.
وأردفت بنعومة أكبر بعد أن أدركت أنّ حدّة نبرتها وسرعة ردّها من شأنهما أن يفضحا الكثير: «لا، بالطبع لا».
لم تشأ أن تعرف حقيقة شعورها، كما لم تشأ أن يعرفها شقيقها العزيز، أقرب أولاد خوان الكولار إليها من حيث السن.
- أنا... في الواقع، كنت أتساءل عن هويته، فهو يبدو عنصراً نافراً... انكليزي في زواج أسرة اسبانية. لم... أتوقع ذلك.
هذه هي الحقيقة فعلاً. لو قُدّر لها أن تختار شخصاً لا ترغب في رؤيته... شخصاً صلّت لئلا تصادفه مرة أخرى في حياتها، فكيف بالظهور هنا، في أهم حدث اجتماعي لهذا العام، في حدث عائلي خاص جداً وسعيد جداً... لخطر اسم جايك تافرنر في بالها قبل أيّ اسم آخر.
لكنها ما ظنت أبداً، أو حتى حلمت، أنه قد يظهر مجدداً في عالمها، خاصة هنا والآن، على بعد مئات الأميال وبعد أسابيع عدة من مكان وزمان لقائهما الأول.
لقد حاولت مراراً وتكراراً أن تطرده من ذهنها، لكن من دون أن تنجح في ذلك. ذكراه رافقت أيامها كالظل ولازمت لياليها ولم تستطع أن

تطرده من أفكارها مهما حاولت ذلك.
وتابع أليكس يقول: «إنه صديق رامون».
وصلّت مرسيدس لئلا تكون قد أغفلت شيئاً من الحديث حين تدفقت الذكريات لتشغل أفكارها، وتعيدها إلى الوراء، إلى أسابيع خلت، إلى الوقت الذي أمضته في انكلترا.
- إنه أحد أقطاب الإعلام في المملكة المتحدة. هل ترغبين في أن أقدّمك إليه؟.
- لا، شكراً.
لم تستطع محو المشاعر التي جعلت صوتها أجش وهي تجيب أخاها. وأمكنها أن تتخيّل المشهد... أليكس يقول لجايك: «أودّ أن أعرفك بأختي».
نظرة الرجل الآخر ستكون مضحكة فعلاً.
بسبب خلفية عائلتها المعقّدة، وحدها هي وجواكين، أخوها الأكبر والوحيد من والدها ووالدتها، يحملان اسم والدها. لذا، يبدو جلياً أنّ جايك تافرنر لم يربط بين مرسيدس ألكولار ورامون داريو، الرجل الذي تبيّن أنه صديقه. وهي لم تتوقع طبعاً أن يكون لأخيها أيّ علاقة بالرجل الذي أطلقت عليه في سرها اسم الشيطان.
واقشعر شعر مرسيدس حين تذكّرت تصرفاتها المتهورة، والرعب المفزع المفاجىء... والوضع الأسوأ الذي تلا.
لأنها كانت غبية بما يكفي لكي تعود.
فعندما خبا الذعر الذي تملّكها، وحلّ محله إحساسها بالواقع، شعرت فجأة أنها غبية فعلاً لأنها هربت بهذه الطريقة. فما من حاجة للهرب منه. جايك ليس وحشاً كاسراً. لو شرحت له مشاعرها، لفهمها... لما أجبرها على أيّ شيء. كان عليها أن تمنحه على الأقل فرصة ثانية.
ولهذا، عادت. شقّت طريقها عبر الشوارع المظلمة حتى وصلت إلى بعد حوالى مئة متر من منزله. عندئذٍ، رأت سيارة الأجرة تصل.

توقفت السيارة السوداء أمام بابه وترجلت منها امرأة طويلة، ذات شعر أشقر، قصير مذهل، تحمل في يدها حقيبة صغيرة.

وكما رأت مرسيدس، أخرجت مفتاحاً من حقيبة يدها وأدخلته في قفل الباب.

وفيما هي تفتح الباب، نادت بصوت حمله الهواء في الشارع الساكن: «جايك! عزيزي. . . لقد عدت. تمكّنت من الخروج باكراً فجئت مباشرة لرؤيتك. أحتاج إليك بشدة. هل اشتقت إليّ يا عزيزي؟».

عندئذٍ، هربت حقاً. استدارت وفرّت كما لو أنّ النيران في إثرها. وللمرة الأولى، حالفها الحظ وتمكّنت من العثور على سيارة أجرة بعد دقائق. وتمكّنت من الوصول إلى المنزل قبل أن تمرض، فرد فعل معدتها على ما حصل كان عنيفاً.

لقد تخلّى عنها جايك، بسخرية وقساوة، بعد أن استخدمها كتسلية ليملأ الفراغ ويتخلّص من الملل الذي تملّكه في غياب صديقته. وقد ارتمت هي بين ذراعيه، كغبية ساذجة. يجب أن تكون ممتنة لأنها خرجت في الوقت المناسب، بفضل ذكرى والدتها التي جاءت كتحذير لها.

أملت أن يساعد مرور الوقت في طرد الذكريات من ذهنها.

ظنّت أنّ كل يوم يمرّ، ستبهت معه الذكرى وتضعف كلياً لتختفي من عقلها. كل ما عليها أن تفعله هو أن تبقى مشغولة وتتوقّف عن التفكير في المسألة.

والبقاء مشغولة كان أمراً سهلاً على الأقل. فالتحضير لزواج رامون المفاجيء وغير المتوقّع كلياً جعل العائلة كلها تغرق في العمل الذي تطلّب الكثير من الوقت والتركيز فأصبح من المستحيل التفكير في أيّ أمر آخر.

إلى أن حلّ يوم الزفاف ورأته فشعرت بساقيها تضعفان تحتها، وبدماغها يتشوّش من الذعر حتى بدا لها وكأن رأسها محشو بالقطن.

لو أمكنها ذلك لاستدارت على عقبيها ورحلت إلى أبعد مكان يمكنها الوصول إليه. لكن، كيف يمكنها ألاّ تحضر زفاف أخيها؟ أو الحفل

الراقص الذي سيقام لاحقاً؟ عليها أن تصلّي وحسب لئلا يلحظها في القاعة المكتظة، المليئة بالضجيج. أو يمكنها أن تغادر باكراً فتتجنب لقاءه وجهاً لوجه.

حتى الساعة، تمكّنت من تدبّر أمورها بشكل جيد. لكن رامون واستريللا سيغادران الآن، ليبدأ شهر عسلهما، ويُتوقّع منها أن تخرج لتلوّح لهما. عليها أن تنضم إلى الجمع الصغير في الباحة. . .

ربما لن يراها.

قد تتمكّن من التواري خلف الحشد الضاحك، الفرح، فلا تراها العينان الزرقاوان، المقيّمتان، المتوقّدتان، المخفيّتان خلف هذه الأهداب الكثيفة.

في باديء الأمر، بدا لها أنّ الحظ إلى جانبها. فهي لم تستطع أن ترى جايك تافرنر وهي تنزل سلالم قصر مدرانو الطويلة. كما لم تره فيما كانت سيارة الليموزين الفارهة السوداء تتوقف أمام الأبواب الخشبية الكبيرة، ليخرج منها السائق ويفتح بابها الخلفي كي يتمكّن رامون وعروسه من الصعود إليها.

لكن الحظ تخلّى عنها عند هذه النقطة. فاستريللا التي أصبحت تعتبرها في الأسابيع القليلة الماضية، صديقتها وحليفتها، لم تشأ أن تغادر على الفور بل ترددت وراحت تنظر من حولها.

- مرسيدس!.

صرخت باسمها ولوّحت لها، من دون أن تلاحظ الاحراج المربع الذي سببته صرختها وحركتها لمرسيدس المسكينة.

وأردفت تقول: «دعيني أعانقك قبل أن أرحل».

لم يكن بإمكانها أن ترفض. على أيّ حال، فات الأوان على ذلك. فقد تميّزت مرسيدس عن سواها، وشخصت الأنظار إليها، ما اضطرها إلى التقدّم لتحتضنها ذراعيّ عروس شقيقها في عناق دافىء ومعطّر. بعدئذٍ، عانقها رامون أيضاً بمحبة وقوة، مع أنه بدا جلياً أنّ أفكاره على بعد أميال

منها، ولعلها سبقته إلى شهر العسل الموعود.

- إلى اللقاء يا شقيقتي الصغيرة. لا تكوني شقية في غيابي.

وابتعد عنها، وصعد إلى السيارة إلى جانب عروسه ثم صفق الباب تاركاً مرسيدس تقف وحيدة، وعلى مرأى من الجميع في الباحة الفسيحة، السابحة في نور الشمس.

في تلك اللحظة، رفعت ناظريها ورأته مجدداً. رأته واقفاً في الجهة الأخرى، مستنداً إلى الحائط فيما ذراعيه معقودتين على صدره كما كانتا عندما التقته للمرة الأولى، في الحفل في لندن.

وكحاله حينذاك، كان يراقبها الآن، وعيناه الزرقاوان، تتأملان وجهها.

انتفض قلبها وتوقّف عن الخفقان للحظة طويلة، رهيبة ثم عاد ينبض مجدداً بسرعة مضاعفة. إلاّ أنّ هذه اللحظة كانت كافية كي يتحلّق بقية أفراد الأسرة من حولها. بنية أخيها الأكبر جواكين الضخمة، وذراعه الموضوعة حول كتفي زوجته الحامل، حالتا دونها ودون تحديق عينيه البارد. كما أحاط بها أليكس وزوجته لويز وطفلتهما. حتى والدها، الرجل الذي لم يعتد إظهار عواطفه سواء بالتصرفات أو بالكلام، انضم إليهم ليلوّح للسيارة؛ وعندما التفتت مجدداً، كان جايك تافرنر قد اختفى.

شعرت بارتياح شديد، أشبه بمياه باردة سكبت عليها، حتى أنها مالت نحو أبيها تستند إليه وأراحت يدها على ذراعه القوية لتسند نفسها.

لعله لم يعرفها. ولعلها تخدع نفسها إذا ظنت أنها ستعلق في ذاكرة رجل كجايك تافرنر.

أو لعل الرسالة القاسية والسليطة التي أخذت تونيا على عاتقها مهمة ايصالها إليه قد تركت فيه الأثر المطلوب وجعلته يبتعد عنها نهائياً.

لعلها نجت من هذه المسألة كلها.

- مرسيدس...

الصوت الذي تناهى إليها من خلفها، جعل حركتها تجمد في لحظة،

ودفعها للتوقّف بشكل مفاجىء في البهو المزيّن.

رجل وحيد يلفظ اسمها بهذه الطريقة. رجل وحيد يستخدم اللفظ الإسباني الأصلي إنما مع لكنة انكليزية خفيفة، بطريقة حركت ذكرياتها على نغمات من نار.

- مرسيدس.

آه، لا! يا إلهي، أرجوك، لا.

* * *

رآها ما إن دخلت إلى الكنيسة.

وتساءل جايك تافرنر كيف يمكنه ألاّ يفعل، وهذا القدّ الأنيق والرشيق وهذا الوجه الجميل عالقان في ذاكرته، لا يفارقان ذهنه منذ أسابيع. لم يستطع أن يطردها من ذهنه منذ ذاك الحين. إنما ما لم يتوقعه هو تأثير ظهورها فيه على الصعيد الجسدي؛ فشعوره كان أشبه بانفجار جعله يرتد إلى الخلف في المقعد الخشبي حيث جلس كسواه في انتظار وصول عروس ابن خالته.

لم يستطع أن يحدد الشعور الذي ترك الأثر الأكبر فيه: أهو الحاجة الجسدية الملحّة التي عذّبته وجعلت أفكاره تجمح أم الغضب البارد المرعب الذي سرى فيه كتيار كهربائي، مهدداً بالطغيان على غيره من المشاعر.

راح يراقبها وهي تقطع ممشى الكنيسة، مرتدية سترة صيفية زرقاء أبرزت قوامها المشوق، وتنورة قصيرة بالكاد تصل إلى ركبتيها. تردد وقع كعبي حذائها العاليين على الأرض المرصوفة في أنحاء الكنيسة، وكاد يقسم على أنه اشتمّ عطرها وهي تمر بجانبه، غافلة كلياً عن وجوده. كان شعرها الفاحم يلمع بعد أن تركته ينسدل في خصل ناعمة، حريرية حول وجهها البيضاوي. أما عيناها، فبالرغم من أنه لا يراهما من حيث يجلس، إلاّ أنه يعلم أنهما بنيتان، داكنتان كالشوكولا الغني ومغريتان مثله.

- نعم... هذا صحيح. اسمي مرسيدس ألكولار...

صدى صوتها تردد في ذهنه وأعاده إلى تلك اللحظة حين قدم نفسه

إليها. وقع الكلمات الناعم، المغري، عززه تأثير لكنتها الاسبانية المترددة الايقاعية، والتفّ على حواسه فتركه سجيناً في لحظة.

لم يستطع حينذاك أن يفكّر في أيّ شيء آخر سوى هذه المرأة وإغرائها. الأفكار هاجمته الآن من جديد، إنما في المكان غير المناسب وفي الوقت غير المناسب.

إلاّ أنه لاحظ الطريقة التي ارتاحت بها يد مرسيدس على ذراع رجل آخر، في لمسة حميمة ومسترخية لأصابعها على السترة السوداء. ابتسامتها له كانت دافئة وجذابة... دافئة وجذابة بقدر الابتسامة التي منحته إياها... فجاء رد فعل رفيقها فورياً، وأحنى رأسه الداكن ليسمع ما قالته.

لاحظ جايك بعبوس أنّ هذا الرجل ليس أحد أخوتها. وأشاح بنظره رغماً عنه، مركزاً عينيه على المذبح حيث وقف رامون وشقيقاه، بانتظار وصول العروس. ليس أحد أخوتها، إلاّ أنه لم يسمح لنفسه بالتفكير في من قد يكون هذا الرجل لئلا يتصاعد الغضب الجامح الذي يغلي في أحشائه، وينفجر بطريقة تفسد يومه... وسمعته... إلى الأبد.

لذا كبح نيران غضبه وسيطر عليها بفضل قوة إرادته، ورفض أن يسمح لنفسه بإلقاء نظرة أخرى على مرسيدس. وتمكّن بطريقة ما من الالتزام بقراره طيلة مراسم الزفاف وحتى خلال حفل الاستقبال، إلاّ أنّ الصراع الذي خاضه ضد طباعه جعل من المستحيل عليه أن يتناول لقمة واحدة ما زاد من عصبيته وسوء مزاجه. كان يرمقها بنظرة من حين إلى آخر، فيجدها مجدداً مع رفيقها الطويل القامة، الأسود الشعر، لكنه يعود ويجبر نفسه على الإشاحة بنظره سريعاً، قبل أن يفقد سيطرته على نفسه كلياً.

لن يفسد يوم رامون واستريلا، لكن حين يرحلان... سيكون لديه ما يقوله لمرسيدس ألكولار، فعليهما أن يتحدّثا جدّياً.

حالفه الحظ حين تجاوزت الليموزين التي حملت العروسين إلى حيث سيقضيان شهر عسلهما، بوابات كاستيللو واختفت عن الأنظار. فالضيوف وأفراد العائلة الذين اجتمعوا في الخارج للتلويح للعروسين

استداروا على أعقابهم وعادوا إلى الداخل، وهم يتحادثون ويضحكون.

ومن خلفهم، أنيقة ومغرية في بذلتها المتقنة التفصيل، وبالكعبين العاليين اللذين جعلا تقدّمها في الباحة بطيئاً وغير واثق، مشت وحيدة المرأة التي يسعى وراءها.

- مرسيدس...

ظنّ في البدء أنها لم تسمعه، إذ لم تدر رأسها فيما بقيت كتفاها مشدودتان كالدرع في مواجهة أيّ هجوم. إلاّ أنه لاحظ أنّ خطاها التي عكست تصميمها اهتزت قليلاً وتباطأت.

- مرسيدس.

ناداها مجدداً قبل أن يتقدّم منها ويمسك بذراعها ليوقفها.

توقّفت فجأة لاهثة. وللحظة فقط، اتسعت عيناها الداكنتان وظهر فيهما بريق غريب، لكنها ما لبثت أن تمالكت نفسها فيما عاد قناع الهدوء إلى ملامحها الجميلة.

تحوّلت في لحظة إلى امرأة أخرى؛ امرأة تختلف كلياً عن تلك التي عرفها في لندن.

تلك المرأة كانت من نار وحرارة، مشرقة كشمس الصيف. أما هذه فقطعة لا بل جبل من جليد، إذ لم يظهر عليها أيّ انفعال، وبدا جسمها الأنيق مشدوداً، ووجهها خالياً في أيّ تعبير لا سيّما تينك العينين الباردتين اللتين حدّقتا إلى عينيه.

هذه المرأة هي صاحبة النظرة الباردة، المرأة المتعجرفة الذي رمقته بنظرة جليدية عبر الغرفة.

- هل أعرفك؟

استطاعت أن تنطق بهذه الكلمات، وكأنها تجبرها على الخروج من بين شفتيها المطبقتين.

وأردفت: «هل التقينا من قبل؟».

كانت مقتنعة بأنها كانت لتخدع أيّ رجل آخر، أضعف منه من حيث

الشخصية. أيّ رجل أقل منه قدرة على ملاحظة ما كان ليلاحظ الوميض المعبرّ الذي ظهر على وجهها للحظة، فاضحاً مشاعرها الدفينة. لكن جايك رآه كما لاحظ بريق عينيها المفاجيء. ذاك البريق الذي حوّل الشوكولا الغني إلى برونز حام وأعلمه أنها تحسّ بوجوده بقدر ما يشعر هو بوجودها.

- هل هذا سؤال جاد؟.

طرح عليها سؤاله هذا، غير مصدّق أنها تحاول خداعه بهذه الطريقة.

- جديّ للغاية.

وارتفع ذقنها أكثر في حركة تحدٍ، ليعلو أنفها أعلى في الهواء. أما العينان الداكنتان الباردتان فقابلتا عينيه ولم يقرأ فيهما أيّ شعور سوى الرفض والنبذ.

- هل أعرفك؟.

- أنت تعلمين أنك تعرفينني.

- لا، ليس لديّ أيّ علم بذلك.

وتمكّنت حتى من الابتسام، رغم أنّ هذه الابتسامة بدت كاذبة ومفتعلة بحيث كاد يتوقّع أن تتحطم وتقع شظاياها على الأرض عند قدميه.

- أعتقد أنك مخطيء... يا سيد...

لم يحاول جايك حتى أن يرد على إشارتها إلى أنّ عليه أن يعرّف عن نفسه، فهذا التصرّف لم يقنعه ولو للحظة.

- ما من خطأ، أؤكد لك. أنت تعلمين ذلك وأنا أعلم ذلك... لكن إن كنت بحاجة إلى مزيد من الاقناع.

كان يفكّر في هذه اللحظة تحديداً وهو يحزم حقائبه، وهذا الصباح أيضاً وهو يرتدي ملابسه ليشارك في حفل الزفاف. ففي جيب سترته الأيسر يقبع الدليل... الوشاح الصغير الذي تركته خلفها حين فرّت تلك الليلة في لندن، والذي أخبرته أنه هدية عزيزة على قلبها من والدتها الحبيبة.

أخرجه من جيبه وفتح أصابعه بما يكفي لترى ما يحمله... إنما من دون أن يسمح لها بالوصول إليه، في محاولة منها لاختطافه منه.

ردّ الفعل جاء كما أمل تماماً.

خرجت أنفاسها في شهقة صدمة، واختفى اللون عن خدّيها فبدا فمها الذي زيّنته بأحمر شفاه زاهي متناقضاً مع بشرتها الشاحبة.

فتحت فمها لتتكلم ثم عادت وأطبقته مجدداً فيما ابتلعت ريقها بصعوبة. كانت على وشك أن تحاول الكلام مرة ثانية عندما ظهر رجل طويل، أسمر في الباب، بدا جلياً أنه يبحث عنها.

- مرسيدس، هل ستأتين؟ نحن ننتظر...

بالطبع! شدّ جايك حنكه ليكبح الغضب الذي كاد ينفجر. إنه خوان ألكولار، رب الأسرة المعقّدة كلها. رجل غني، صاحب نفوذ ومتعجرف للغاية. الرجل الذي عبث بأسرة والدته بحيث لم تشفَ حقاً، ولا تزال الذكريات المرّة تنغّص حياتها حتى اليوم. وهو والد مرسيدس أيضاً.

هل البنت نسخة عن أبيها؟.

يبدو ذلك. وهو مستعد للمراهنة على ذلك، على أيّ حال.

- أنا آتية يا أبي.

يبدو أنها استعادت رباطة جأشها. وعادت العينان الداكنتان إلى وجهه، من دون أيّ أثر للنعومة فيهما.

- أرجو المعذرة.

كلماتها كانت بالكاد مؤدبة، فارتياحها لأنها أصبحت قادرة على الهروب منه جعلها لا تتردد في قولها. في الواقع، كانت قد استدارت على عقبيها لترحل حين تكلّم.

راقبها جايك وهي تتحرك باتجاه والدها. كان رأسها عالياً وظهرها مستقيماً، مشدوداً كما يبقيه والدها، ولم تتكرّم عليه حتى بنظرة واحدة.

البنت سرّ أبيها! دمدم من بين أنفاسه: «لا، أيتها السيدة، فأنت من ارتكب الخطأ».

بدا جلياً أنّ مرسيدس ألكولار ابنة أبيها. وينبغي عليه أن يتذكّر هذا في المستقبل.

وثمة مستقبل يجمع بينه وبين الآنسة ألكولار، فهو مصمم على ذلك.

لأنها أثرت فيه إلى حدّ كبير فأصبحت كعلّة لا يستطيع أبداً أن يعالجها.

ولأنّ أموراً كثيرة لا تزال عالقة بينه وبين الآنسة ألكولار، أمور ينوي جايك أن ينهيها على طريقته.

لعلها تظن أنها أنهت قضية ما حصل بينهما في لندن، حين ادّعت أنها لا تعرفه، وأنّ المسألة حُلّت بمجرد أنها تركته ومشت.. لكنها مخطئة كلياً.

ستنتهي المسألة حين يقرر ذلك، وليس قبل.

٦ - ليست امرأتك!

ليتها لم تذهب إلى لندن!.

هذه هي الفكرة التي لم تبارح ذهن مرسيدس، وعذّبتها حتى عندما عادت إلى حفل الاستقبال وأجبرت نفسها على الابتسام وتبادل الأحاديث والرقص مجدداً.

لو بقيت في المنزل ولم تطأ قدمها العاصمة الانكليزية، لاستمرت حياتها على حالها، طبيعية، هادئة وسعيدة، لتمكّنت من التحضير لزفاف رامون من دون تردد أو أفكار مشوّشة. ولتمكّنت من الاستمتاع بيومها من دون الخوف اللعين الذي هاجمها ما إن دخلت إلى الكنيسة ورأت جايك تافرنر جالساً بين الحضور.

ماذا كانت لتشعر لو أنها المرة الأولى التي تلتقيه فيها؟ لو أنها سارت في الممر ورأته جالساً هناك، من دون أن تكون قد التقته من قبل؟.

هل كانت لتختبر ذاك الإحساس المذهل الأشبه بانفجار في قلبها، انفجار حصل لمجرد رؤيته؟.

انتفاض قلبها في صدرها في رد فعل على السؤال الذي طرحته على نفسها في سرّها جعلها تدرك أن الجواب الوحيد هو الايجاب.

- آه!.

صرخة الاعتراض الحادة اخترقت أفكارها، ما جعلها تتردد وتتوقف لتحمرّ خجلاً حين أدركت أنها لم تكن ترقص بأناقة ورشاقة كما اعتادت، بعد أن فقدت تركيزها وشردت أفكارها في عالم آخر. كانت تائهة في عالم من الذكريات غير المرغوب فيها، ففقدت تركيزها على خطواتها ما جعل

www.elromancia.com

أحد كعبيها العاليين والرفيعين يحطّ على إصبع شريكها، حتى كاد يثقب حذاءه الجلدي اللمّاع.

- ميغيل، أنا آسفة! لم أكن أركّز!.

ردّ رفيقها وقد ارتسم تعبير ساخر على وجهه: «هذا ما لاحظته. ما الأمر يا عزيزتي؟ ألاّ ترغبين في الرقص؟».

أقرّت مرسيدس: «أنا... حسناً، لا، لا أرغب في ذلك، في الواقع».

سارعت لتحتمي بميغيل ما إن عادت إلى القاعة. فإذا ما رآهما معاً، سيظن جايك تافرنر أنهما شريكان لأكثر من مجرد رقصة، وسيبقى على مسافة منها.

- أظن أني تعبت بعض الشيء.

- حسناً، هذه هي مشكلة الأفراح... والاحتفالات. إنما، قد يفيدك بعض الهواء النقي. يمكننا أن نخرج إلى الحديقة.

- المكان حار جداً هنا.

علمت أنّ ميغيل لديه دافع خفي وراء رغبته في الخروج إلى الحديقة... معها. لكنها لا تأبه لذلك بصراحة. في الواقع، لعل هذا الخيار هو الأفضل. إنها طريقة لكي تلهي نفسها عن حضور جايك تافرنر المتوحش، وعن الطريقة التي تراقبها بها عيناه الزرقاوان، مع كل حركة تقوم بها ومع كل تصرّف تأتي به.

وربما، إذا ما حالفها الحظ، سيكون عناق ميغيل لها ما تحتاجه بالضبط. فقد يجعلها تدرك أنّ ما حصل في لندن ليس سوى اضطراب عقلي، وأنّ تأثير جايك فيها ليس سوى حلم. قد تدرك أنّ عناقه ليس مدمراً بقدر ما تتذكر، وأنّ المسألة لم تتعدَ كونها مزيجاً من نشاط هورموني، وإثارة وجودها في انكلترا والجو المحيط بها.

- إذن، رافقيني.

أحاطت ذراع ميغيل بكتفيها وأدنتها منه كثيراً. إلاّ أنّ مرسيدس

قررت ألاّ تقلق بهذا الشأن، كما لم تحاول أن تبتعد. وبدلاً من ذلك، دنت منه أكثر وأراحت رأسها على كتفه ثم رفعت رأسها لتبتسم له بشكل متعمد.

ليفسر جايك تصرفاتها هذه كما يشاء! إذا ما ظن أنها ليست وحيدة، وأنّ رجلاً آخر مهتمّ بها... لا بل أكثر من مهتم... لتخلى بالتأكيد عن محاولته بعث لقائهما في لندن ونسي المسألة، تاركاً إيّاها في سلام.

لذا، ركّزت اهتمامها كله على ميغيل، وراحت تنظر في عينيه كالعاشق الولهان وهو يقودها من قاعة الرقص إلى الحديقة عبر الأبواب الزجاجية الضخمة. لم تلتفت، لم تخاطر بإلقاء نظرة باتجاه جايك لترى ردّ فعله، رغم أنّ كل عصب من أعصابها كان مشدوداً، حذراً، متيقّظاً. لم يكن بإمكانها أن تراه، لكنها أدركت أنه في مكان ما، في ناحية ما من القاعة، يراقبها ويستخلص استنتاجاته الخاصة.

- من هو ذاك الرجل الذي يرفقة ابنة ألكولار؟.

طرح جايك هذا السؤال على الرجل الذي كان يتحدث إليه... أو يدّعي التحدّث إليه. في الواقع، كان مشغولاً كلياً بمراقبة مرسيدس وهي ترقص، عاجزاً عن رفع عينيه عن حركات جسدها الرشيقة، وعن تمايله الغريزي مع الموسيقى.

- أتعني ميغيل؟ ميغيل هرنانديز؟.

والتفت الرجل إلى حيث كان جايك ينظر ثم أومأ ببطء.

- نعم، إنه ميغيل. تقول الشائعات إن زفافهما هو التالي.

- هل هما مخطوبان؟.

لم يستطع جايك أن يخفي الصدمة في صوته، إلاّ أنه تمكّن من كبح شيء من الاهتزاز الذي كاد يفضح حقيقة شعوره.

لقد تصرّفت معه بشكل أثاره للغاية، وجعله يرغب فيها... فيما هي مخطوبة وعلى وشك الزواج من رجل آخر؟.

- لا أظن أنّ الأمر رسميّ بعد. لكن، واستناداً إلى أقوال زوجتي، المسألة مسألة وقت... على الأقل إذا ما تدخّل الأب ألكولار ووالد

هرنانديز الشاب. إنهما يشجّعان هذا الاتحاد... علماً أنه يبدو أنّ الشابين لا يعارضان هذه الفكرة.

يبدو جلياً أنهما لا يعارضان الفكرة. هذا ما خطر لجايك فيما الرجل يعتذر منه ويبتعد، كما أعطاه تفسيراً معقولاً لطريقة تصرّف مرسيدس... فهي مذعورة مما قد يفضحه عنها.

لعلها لا تتذكره، أو على الأصح لعلها تدّعي أنها لا تتذكره، إلا أنه يتذكرها جيداً. همهم جايك بذلك لنفسه وهو يراقب مرسيدس فيما كانت تقطع الغرفة، ملتصقة بالرجل الذي كان يراقصها. وتذكّر طريقة تصرّفها أيضاً.

كانت على هذا الحال معه منذ اتصل بها ودعاها لتناول العشاء في شقته.

وتذكّر أنها التصقت به أيضاً. هذه الذكرى وحدها أثارت مشاعره وحواسه.

وقد ضحكت بهذه الطريقة أيضاً ونظرت إلى عينيه بهذه الطريقة المكرّسة، المأخوذة كلياً، كما لو أن العالم لا يحوي سواه.

وصدّق ذلك كلياً، كهذا الغبي المسكين الذي يرافقها الآن. كانت تستغفله وتستغله... تماماً كما فعلت بجايك. تأسره، تدعوه، تغريه، تعد بالكثير... مع أنها تعرف تماماً أنها لا تنوي الوفاء بوعودها. إلاّ إذا كان ميغيل الشخص الذي تنوي الوفاء بوعدها له.

- تباً!

صعقته هذه الفكرة بحيث أن ساق الكأس التي كان يحملها في يده طقطقت تحت ضغط أصابعه المفاجىء والقوي، فاضطر إلى وضعها بسرعة على أقرب طاولة لئلا يجرح يده بشظايا الزجاج الحادة.

هل هذا سبب هروبها منه؟.

هل تذكرت فجأة صديقها الغبي المسكين الساذج الذي ينتظرها في بلادها، ففرت من منزله في صحوة مفاجئة لضميرها؟.

وكما لو أنّ هذه الفكرة أعطته دفعاً، فوجد نفسه يتحرك، يشق طريقه سريعاً عبر باحة الرقص المكتظة، يستدير بحدة ليتجاوز بعض الراقصين، الملتصقين ببعضهم البعض، مأخوذاً كل منهم بالآخر. واضطر مرة أو اثنتين لأن يبطىء سيره إذ عرقلت تقدّمه نساء أعقن طريقه، محدّقات إليه، مبتسمات ابتسامة تشجيع.

ربما كان ليهتم لو أن الوضع مختلف، وربما كان ليتريّث ويتسكّع. لكن أيّ من النساء لم تلهه بما يكفي لتهدّىء وتسكّن لهيب أفكاره، وغيظ ذهنه الشديد.

- ليس الليلة.

- عفواً، سيدتي...

تحوّل آلياً إلى الاسبانية التي تعلّمها أثناء العطلات العديدة التي أمضاها مع أسرة والدته؛ والساعات الطويلة التي أمضاها مع رامون، ابن خالته.

- عليّ أن أرى أحدهم.

أدرك أنّ صوته بدا قاطعاً وبارداً، ونبرته جافة وفظّة، لكن عقله كان بعيداً كل البعد عن الآداب في السلوكيات... كما لم يكن يفكّر بالتأكيد في لقاء امرأة أخرى وربما الخروج معها. لم تخطر له هذه الفكرة منذ لاحظ مرسيدس ألكولار للمرة الأولى في إحدى القاعات في حفل صاخب ينظمه أحد أقطاب الإعلام في لندن.

فمنذ أن رآها للمرة الأولى، علق في الصنارة ووقع في الشرك وسُلب لبّه... أسرته وتغلغلت فيه بحيث لا يظن أنه قد يتحرر من تأثيرها يوماً. ما من شيء كان ليوقفه حينذاك؛ ولا حتى إدراكه أنها ابنة الرجل الذي ترعرع على فكرة أنه الذئب المفترس والمارد اللئيم والساحر الشرير في شخص واحد. كما أنّ ما من شيء يمكن أن يوقفه الآن.

غمغم جايك لنفسه: «مستحيل! هذا مستحيل».

لفح هواء الليل المنعش وجهه ما إن خطا خارج الأبواب، ما جعله يأخذ نفساً عميقاً. كان الطقس دافئاً كحاله تلك الليلة حين رافقته إلى

www.elromancia.com

شقته، وهي ترتدي ذاك الثوب القصير الزهري اللون.

- ميغيل، لا.

تناهى إليه هذا الصوت، صوتها، من مسافة قريبة، من مكان معتم، بعيد عن أضواء قاعة الرقص التي انعكست على الحديقة الواسعة. وعلى الفور أدار جايك رأسه باتجاه الصوت، فيما راحت عيناه تبحثان في الظلام، علّهما تحددان مكانها.

- لا تعذبيني.

إنه صوت الرجل الآخر، ميغيل هرنانديز. نبرته وهو يتلفظ بهذه الكلمات جعلت جايك يصرف بأسنانه، فقد جاء صوته أجش، متملكاً، وخبيثاً بعض الشيء. صوت رجل يعلم أنه سينال مراده. رجل يعتبر الاعتراض مجرد جزء من اللعبة. . . لمسة من الإثارة والتشويق.

ومرسيدس اللعوب، مرسيدس المغوية، الحورية. . مرسيدس التي تعذّب الآخر بدم بارد أوقعت رجلاً آخر في شركها، وقيّدته بحبائلها. . .

- أنت تعلمين لما نحن هنا.

حمل صوتها نبرة اعتراض وهي تجيب: «ولكن. . . ستفسد ثوبي. . . فالحائط خشن هنا. . .».

- سأعالج الأمر على الفور.

حركة خفيفة جعلت جايك يتوقف ويراقب. وبعد لحظة، استطاع أن يرى بوضوح أكبر. رأى الطريقة التي استدار بها ميغيل، الذي كان يدير ظهره له، وجعل مرسيدس تستدير معه بحيث أصبح هو من يستند إلى الحائط الخشن في وقفة رجولية مستبدة.

- هل الوضع أحسن الآن؟

طرح هذا السؤال بخشونة، وبحدة مفاجئة طردت الضحكة من نبرته.

كان جايك يعلم تماماً معنى هذه النبرة. الرضا الخفي الذي تضمّنته هاتان الكلمتان شيء يمكن لأي رجل أن يدركه، لا سيّما مع امرأة جميلة ومثيرة بقدر مرسيدس التي تقف بقربه.

وذكّر نفسه بجفاء أنها تصرّفت بالطريقة نفسها معه، وأنه عاش الشعور نفسه.

ولفت انتباهه صوت مفاجىء، فأعاد أفكاره من المنحنى المثير الذي اتخذته وأجبرها على العودة إلى الواقع رغماً عنه.

- عانقيني!.

كان ميغيل من تكلّم، غير واعٍ لوجود من يسمعه، وللمراقب الصامت الواقف في الظل. ثخونة صوته أثارت أعصاب جايك فجأة، وجعلته يرفع رأسه، فيما ضاقت عيناه وراح يراقب المشهد باهتمام أكبر.

لم تكن الأمور في الواقع كما افترض في البدء. فهو لم يلاحظ من قبل التوتر الجلي في ظهر مرسيدس، كما بدا أنها تبقي نفسها بعيدة عن ميغيل هذا بدلاً من أن تلتصق به كما ظن في بداية الأمر.

- قلت لك عانقيني!.

- لقد عانقتك!.

اعترضت مرسيدس بنبرة حادة جداً. وما إن سمع كلماتها حتى تبخّر شعور الإثارة المحرق الذي تملّكه، لتحلّ محله عدائية جامحة، لكن جايك ما استطاع أن يحدد ما إذا كان يشعر بالعدائية نحوها أم نحو ميغيل أم حتى نحو نفسه.

- عانقيني مجدداً.

- من الأفضل أن أعود إلى الداخل.

- وأنا أفضّل أن أبقى هنا، مع امرأتي.

- لست امرأتك!.

- بلى، أنت كذلك.

كلمة «امرأتي» المتملّكة ضربت على أعصاب جايك بقوة. هل هذا الأحمق أعمى؟ ألا يرى أنّ هذا آخر ما ترغب في سماعه؟

- تعلمين أنّ عائلتينا ترغبان في رؤيتنا معاً وتسعيان إلى تزويجنا. أنت لي وقد حان الوقت لتبدئي بإظهار ذلك.

- ميغيل، لا!.

عكس صوتها ذعراً حقيقياً. إنما يبدو أنّ النغل الذي كانت برفقته إما لم يسمع ما قالته وإما لا يرضى بالرفض.

- مرسيدس، بلى...

وشلّ الغضب الجامح تفكير جايك وانمحى المنطق من عقله حين رأى يد ميغيل تنزلق على ظهر مرسيدس في لمسة مقززة.

- أنت لي، كلك لي، لأفعل بك ما...

البخار الأحمر غشى عينيه فيما تعالى الطنين في أذنيه.

- لا!.

صوت غضبه كان أشبه بانفجار في الظلام فيما تقدّم إلى الأمام، وأمسك بعنف بالرجل ليبعده عن مرسيدس ويثبته إلى الحائط.

- لا، تباً لك! مستحيل! دعها وشأنها!.

- أحقاً؟.

ورمش ميغيل بعينيه من وقع الصدمة إلاّ أنّ ذلك لم يخفف من العدائية في نبرته. وأردف يسأل: «ولِمَ عليّ أن أفعل ما تقوله؟».

لم يتردد جايك للحظة ولمَ يفكّر، فخرجت الكلمات من بين شفتيه على الفور، رغبة منه فقط في اسكات الرجل الآخر قبل أن يتكلم مجدداً.

قال موجهاً كلماته إلى الوجه الأسمر، الغاضب: «لأنها لي! لأنها ليست امرأتك... بل امرأتي!».

٧ - ما من خطأ

أدركت مرسيدس أنها في ورطة ما إن وطأت قدماها أرض الحديقة.

في الواقع، ما كان لها أن تدّعي مغازلة ميغيل. كانت تعلم أنها ما فعلت ذلك إلاّ لتهرب من أيّ مواجهة مع جايك تافرنر. لكن ما كادت تخرج إلى الحديقة مع ميغيل حتى بدأت تتساءل عمّا إذا أساءت التصرّف. فقد كان العرق ينضح من بشرته فيما بدت عيناه لامعتين أكثر مما كانتا عليه يوماً.

والآن، ها هي يدا ميغيل تحاولان شدّها إليه، لتقرّباها منه بشكل أكثر حميمية. ومهما حاولت أن تقاوم وأن تحاول التحرر من تينك اليدين اللتين تشبثتا بها، بالكاد تمكّنت من مواجهة قوة تصميمه.

- أنت لي، كلك لي، لأفعل بك ما...

كان صوته جافاً وأجش، وعيناه لامعتين، وأنفاسه حارة وثقيلة على خدها.

لا!.

تردد الرفض والصدّ عالياً في رأسها بحيث أنها لم تدرك لثانية أو اثنتين أنه تم التعبير عنه بصوت عالٍ... إنما بصوت مختلف كلياً عن صوتها.

- لا، تباً لك! مستحيل! دعها وشأنها!.

وفي اللحظة التالية، رأت هيئة عريضة قوية تظهر من خلفها. يدان قويتان انقضتا على ذراعي ميغيل لتمسك بهما أصابع طويلة. أبعد ميغيل عنها، وقُذف نحو الحائط فيما اختلطت صرخة الغضب التي صدرت عنه بصرخة الخوف الغريزية التي مزّقت حنجرتها.

- ولِمَ عليّ أن أفعل ما تقوله؟.

فردّ عليه الرجل الطويل، الغاضب الذي ظهر فجأة: «لأنها لي! لأنها ليست امرأتك... بل امرأتي!».

- ماذا؟.

وفيما تمكّنت مرسيدس من النطق بهذه الكلمة اليتيمة، أمسكت بها يدان قويتان، وقرّبتاها من صدر عريض وقوي العضلات. وفي اللحظة نفسها، أدركت أنّ صرختها سُمعت بوضوح في المنزل، إذ ساد صمت مفاجىء، تلته جلبة أصوات وحركة، وتعالى صوت خطى على الدرجات وعلى الحصى. خطى سريعة، تتجه نحوهم.

- لا، يا إلهي!

وهبط قلب مرسيدس. أملها الوحيد في حل المسألة بهدوء ومن دون مشاكل تلاشى في لحظة.

- بلى.

سماع هذا الصوت المألوف جعل شعورها يتحول من سيء إلى أسوأ، وخرجت من بين شفتيها غمغمة يائسة بعد أن رأت الشخص الذي تدخّل لمساعدتها.

- أنت!.

رمقها جايك تافرنر بنظرة سريعة، فالتمعت عيناه بشكل مخيف في ضوء القمر.

ردّ عليها بإيجاز: «أنا، ومن غيري؟».

- مرسيدس؟.

كان ميغيل غاضباً جداً وهو يردف: «من...؟».

لكن مرسيدس تجاهلت سؤاله وهي تحدّق إلى جايك بحنق وغيظ.

- ماذا تظن نفسك فاعلاً؟.

فردّ جايك: «يمكنني أن أطرح السؤال نفسه. ماذا تظنين نفسك فاعلة، بحق الجحيم؟».

- كنت... لا علاقة لك بما أفعله مهما كان!.

- أحقاً؟.

- لا. لا علاقة لك بذلك أبداً!.

وضربت قدمها بالأرض، رغبة منها في التعبير بشكل فعّال وعملي عن الغضب الذي يغلي في داخلها. امتزج الغضب بإحساس مريع بالإهانة وبلمسة من اليأس بعد أن أدركت مرة أخرى أنها أوقعت نفسها في ورطة حقيقية، لاسيّما مع وجود جايك تافرنر.

- كيف تجرؤ على التدخل...؟.

قاطعها جايك بازدراء وإدانة: «ماذا؟ أردتني أن أتركك هنا؟ معه؟».

حركة رأسه باتجاه ميغيل المربك والمحبط عكست كل الازدراء الذي يشعر به.

- هل هذا من قلت إني لست في مستواه؟.

- قلت لك...

وارتجفت الكلمات على شفتيها حين أدركت فجأة ما قاله عندما انقضّ عليهما.

- أنت... أنا.. ماذا... كيف تجرؤ؟.

ذكرى الكلمات التي تلفّظ بها قضت على أيّ أمل لديها في التحدّث بشكل مترابط.

«لأنها ليست امرأتك... بل امرأتي!».

تحدّاها بعنف: «كيف أجرؤ علاما؟».

- أن تقول إني... امرأتك! لست.. كيف تجرؤ؟.

وعادت تكرر هذه الجملة بشكل فارغ.

ردّ جايك باندفاع متشنّج: «بل أتجرأ، فثمة أمور لا تزال عالقة بيننا..».

- ما من شيء بيننا! لا شيء!.

ولتثبت ذلك، سترحل من هنا. أول الأشخاص الذين نبهتهم

www.elromancea.com روايات

صرختها بدأوا بالوصول إليهم. وكما لو أن القدر كان مصمماً على جعل الأمور مروّعة أكثر مما هي عليه، لاحظت أنّ من يترأس المجموعة هما شقيقاها جواكين واليكس، فيما والدها على بعد خطوات منهما. ليكن الله في عونها!.

قالت مجدداً، مشددة على كلامها، مجبرة الكلمات على الخروج من بين أسنانها المطبقة: «لم ولن يكون بيننا شيء».

واستدارت وهي تتكلم في محاولة يائسة منها للفرار. لكن جايك ما كان ليدعها تذهب. فقيما كانت تستدير على عقبيها، مدّ يديه نحوها وأمسك بها من ذراعيها ثانية وشدّها إلى جانبه. سحقها على صدره، فرفعت عينيها تحدّق إلى العينين الزرقاوين الباردتين، وشعرت بحرارة جسده وبالطريقة التي ارتفع فيها صدره وهبط بسرعة بسبب عدم انتظام أنفاسه الناتج عن طباعه الجامحة التي بالكاد تمكّن من كبحها.

دمدم بخشونة: «لن ترحلي يا عزيزتي! فلدينا ما نناقشه».

- لا، ليس لدينا ما نناقشه! ليس لديّ ما أقوله لك ولا يمكنك أن تقول شيئاً أرغب في سماعه.

ووجدت نفسها فجأة عاجزة عن التفكير في ما تفعله. جلّ ما أرادته هو الرحيل عن هذا المكان وبعيداً. بعيداً قبل أن يصل أخواها ويبدآن بطرح أسئلة غريبة. قبل أن يتمكّن أبوها...

وما كان منها إلاّ أن سددت ركلة قوية إلى ساقه، ركلة لم تنجح إلاّ في جعله يتقدّم متعثراً ومرتبكاً. وعمد جايك إلى سجنها. كانت قبضته قوية جداً ومحكمة يصعب الفكاك منها بسهولة، وبدا جلياً أنه لا ينوي إطلاق سراحها قريباً.

- تعقّلي يا مرسيدس.

سلوك جايك الهادىء أثار غيظها وجعلها تفقد أعصابها.

تعقّل! أيظن أنّ ما يجري تصرّف عاقل؟.

- وتجرؤ على أن تتكلم عن التعقّل! أنت! فيما تحاول أن تدّعي أني

امرأتك... أنت لئيم بقدر ميغيل!.

بدا ساخطاً وهو يصرخ بها: «لا!».

- بلى!.

كان عليها أن تتكلم بصوت عالٍ وبصوت قوي لأن جسدها الخائن راح يتجاوب مع قوة جسده وقربه. فالذراعان اللتان تسجنانها الآن هما الذراعان اللتان احتضنتاها تلك الليلة في لندن. لكنهما حينذاك أمسكتا بها بطريقة مغايرة جداً.

- أنت سيء بقدره تماماً.

وفي حركة يائسة منها، رفعت يديها، وأطبقتهما في قبضتين شديدتين، ثم راحت تضرب بهما الكتفين العريضتين، العنيدتين، الصلبتين، القويتين فوقها.

صرخت، وقبضتاها تضربان معطفه الأنيق في تأكيد لكل كلمة تقولها: «لأني لست امرأتك... مستحيل! أنا.. أنا لا أريدك حتى! أنا... لا... أريدك... أبداً!».

ردّ عليها جايك باهتياج شديد: «لم يكن هذا ما قلته بين ذراعيّ تلك الليلة. حينذاك، قلت لي... جايك، حبيبي، جايك، عزيزي... جايك...».

وما روّع مرسيدس هو أنّ كلماته خرجت وسط صمت وذهول وصدمة جعلتها تتردد في أنحاء الحديقة السابحة في ضوء القمر. ورأت رأس ميغيل يرتفع، ولاحظت النظرة الساخطة التي رمقها بها، والنبذ الصرف الذي ارتسم على ملامحه السمراء. وأدركت أنه لن يسامحها أبداً.

- جايك، أيها النذل!.

ودفعها اليأس إلى مقاومة قبضته المحكمة، بعد أن كرهت فكرة أن يروها معه في هذا الوضع.

- دعني! أنا... آه!.

وانفجرت بالبكاء بعد أن سمعت صرخة ولاحظت الحركة من حولها.

أحدهم أمسك بها من الخلف. وظهرت قامتان رجوليتان وأحاطتا بجايك من الناحيتين ثم أمسكتا بذراعيه وشدّتاه بعيداً عنها.

وحصلت مشاجرة صغيرة، بشعة. وفي وسطها، أديرت مرسيدس وجُذبت إلى صدر قوي آخر.

قال صوت خفيض: «لابأس يا مرسيدس. أنت آمنة الآن».

صوت عرفته... إنه صوت والدها!

إنما ثمة خطأ ما. شيء ما في نبرته جعل أعصابها تتوتر وحواسها تُستنفر.

رمشت بعينيها مرة بعد مرة، ثم حدّقت إلى وجه والدها فرأت الغضب البارد والقاسي يعلوه. ومن دون أن تدري ما يجري بالتحديد، أجبرت نفسها على الالتفات نحو الاتجاه الذي اتبعته نظرته الحانقة.

ورأت جايك في قبضة شقيقيها. كان وجهاهما قاسيين وملامحهما باردة من الغضب وتملّكها شعور بأنهما مصممان على إلحاق الأذى به إذا لم تتدخل بسرعة.

ما كان بإمكانها أن تدع هذا يحصل. ورغم أنها تكرهه، إلاّ أنها لا تستطيع أن تترك شقيقيها يصبّان غضبهما على جايك في حين أنه لم يفعل شيئاً يستحق ذلك...

- لا... أنتم مخطئون! أليكس... جواكين...

ردّ جواكين يطمئنها: «لابأس يا أختي الصغيرة، إنه في قبضتنا. لن يلحق بك الأذى».

- لكن...

لم تعرف ماذا تقول أو كيف تشرح الوضع. لكن، وحين رأت ميغيل، المذنب الحقيقي في مسرحية هذه الليلة البشعة، يفرّ من المشكلة تحت جناح الليل، اتخذت قرارها.

- لا... أنتم لا تفهمون... هو... جايك... المسألة مجرد خطأ.

- ما من خطأ.

هذه المرة، كان جايك من تدخّل وقاطع كلامها. لعل شقيقيها يمسكان بذراعيه ويثبتانه إلى جانبيه، ولعله سجينهما، إلاّ أنّ رأسه الفخور لا يزال عالياً بتعجرف، ولا تزال العينان الزرقاوان الحادتان تحدقان إلى عينيها البنيتين المصدومتين.

- جايك...

حاولت مرسيدس أن تتكلم، وحملقت فيه بقدر ما تجرّأت من القوة. أرادت أن تحذّره، أرادته أن يصمت. وتمنت ألاّ يتدخّل من أجل مصلحتها... ومصلحته.

فهو لا يعرف والدها وشقيقيها. بما أنها أصغر أولاد العائلة، والفتاة الوحيدة فيها، عمد الكل إلى إحاطتها ورعايتها وتدليلها منذ اللحظة التي ولدت فيها. ووفاة أمها المبكرة والمأساوية زادت الوضع سوءاً إذ دفعت جواكين وأبوها إلى الالتفات إليها في محاولة منهما لملء الفراغ الذي خلّفته أمها. لقد أفسداها دلالاً وكانت تدرك ذلك. ووفاء أشقائها «لأختهم الصغرى» كان الحب يعميه بدلاً من أن يكون مبنياً على أسس واقعية.

لكن بدا جلياً أنّ جايك غير مستعد للاستماع إليها.

كرر بوضوح بارد: «ما من خطأ».

يمكنها أن تحملق فيه كما تشاء؛ لقد فاض به الكيل من هذه المرأة اللعوب التي تحاول أن تدّعي أنها لا تعرفه... وأنهما لم يلتقيا يوماً. يمكنها أن تزمّ شفتيها وأن تضرب الأرض بقدمها الصغيرة وأن ترمقه بنظرات حانقة تعني «كيف تجرؤ على تنفّس الهواء نفسه الذي أتنشّقه؟»، في محاولة منها لإسكاته وهزمه، لكنها ستكتشف سريعاً أنه غير قابل للتحطيم والسحق.

كثيرات غيرها وأفضل منها حاولن ذلك في الماضي. حاولن وفشلن فشلاً ذريعاً.

ولن يدع مرسيدس ألكولار تنجو بفعلتها، لا سيّما بعد الطريقة التي عاملته بها.

- ما من خطأ على الإطلاق... إلاّ إذا كنت تعنين طبعاً أنهم أمسكوا بالرجل الخطأ.

والتفت ليواجه الأخ الأكبر... أي جواكين... فبادل الإسباني الطويل النظرات. عينان زرقاوان باردتان تواجهان عينين داكنتين يتطاير منهما الشرر.

- لم أكن من أساء التصرّف مع أختك الصغيرة.

- ما الذي رأيته إذاً حين وصلت إلى هنا؟.

طرح جواكين سؤاله هذا، والغضب البارد ينعكس في نبرته فيما اشتدت قبضته على ذراع جايك ثم أردف: «يبدو لي...».

قاطعه جايك بمنطق بارد: «عندما وصلت إلى هنا، كانت مرسيدس من يهاجمني. وكما أذكر، كانت من يضربني بقبضتيه... وبقوة».

أضاف كلمته الأخيرة وهو يلوي شفتيه للذكرى.

- ولسبب وجيه!.

اعترضت مرسيدس بهاتين الكلمتين، فشعر جايك بشقيقها الآخر، اليكس، يدنو منه أكثر. وأردفت تقول: «كنت... كنت...».

فسألها جايك بنبرة جليدية عندما ترددت واحمرّت من الإحراج: «ماذا كنت أفعل؟ ما الخطأ الذي ارتكبته؟».

عينان بنيتان داكنتان تحولتا إلى برونز ذائب من شدة الغضب حدّقتا إلى جايك مباشرة فيما مرسيدس تحاول أن تجد حلاً لمشكلة ما ينبغي قوله أو عدم قوله، وما هو آمن وغير آمن.

- تدخلت بينك وبين هرنانديز. هل تعنين...؟.

عندئذٍ، قاطعه خوان ألكولار، والعجرفة الباردة في صوته متعمّدة لوضعه عند حدّه: «إن كانت ابنتي مع ميغيل هرنانديز، فما الذي يعنيك في ذلك؟».

هذه النبرة كانت أشبه بصفعة على وجه جايك، إذ بدت وكأنها تختصر كل ما قيل له يوماً عن خوان ألكولار. أمكنه أيضاً أن يصدّق ما قالته أمه

عن الطريقة التي عامل بها هذا الرجل شقيقتها، وليس مرة واحدة، بل مرتين.

- ثمة تفاهم... بين مرسيدس وهذا الشاب.

- ليس بعد الآن.

هذه المرة، كان ميغيل من تكلّم. كان يراقب كل ما يجري بصمت من مكانه قرب الحائط، لكنه تقدّم الآن ونيّته الخبيثة ظاهرة في البريق البارد في عينيه، وفي حركة شفتيه.

وأعلن بلهجة باردة، موجهاً كلماته إلى وجه والد مرسيدس مباشرة: «إذا ما أملت يوماً في أن أتزوج ابنتك يا ألكولار، فيمكنك أن تنسى الفكرة برمتها! الخطوبة انتهت. أنا لا أريد بضاعة ملوّثة، وقد اكتشفت الليلة أن ابنتك... عروس المستقبل... لم تكن وفية لي! ففيما كانت في لندن، أقامت علاقة مع هذا الرجل»!.

٨ - أسوأ كابوس

إنها تعيش كابوساً.

لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً... لا يمكن وحسب! لا بدّ أنها نائمة... رغم أنها لا تدري كيف أو متى. لا بدّ أنها غفت في مكان ما، وبشكل ما، لتجد نفسها في هذا الحلم المريع، المنفّر. وهي الآن عاجزة عن الاستيقاظ والفرار من هذا الحلم.

أسوأ جزء من هذا الحلم هو الصمت المفاجىء المطبق الذي ساد في المكان بعد ما أعلنه ميغيل. صمت دفعها للنظر من حولها رغماً عنها لتدرك فجأة عدد الأشخاص الذين سارعوا فعلاً للرد على صرختها. أناس تحلقوا الآن في نصف دائرة، يحدّقون إليها، يراقبونها بانتظار ردّها.

يا إلهي، ليت هذا يكون مجرد حلم، وليتها تستيقظ سريعاً!

حاولت أن تقرص يدها بقوة إلاّ أنّ هذا لم يأتِ بنتيجة سوى الألم.

تمنت لو تنشق الأرض وتبتلعها. لو يحصل أي شيء يخرجها من هنا، يبعدها عن هذا الاحراج المميت، وهذا العار الرهيب ويجعلها تختفي.

ليتها تستطيع أن تستيقظ وتكتشف أنّ هذا لم يحصل أبداً.

إلاّ أنّ هذا لن يحصل أبداً. وأدركت في لحظة مروّعة أنها لن تتمكّن أبداً من إنكار اتهامات ميغيل. لن تتمكّن من ذلك حتى وإن أرادت أن تفعل. فهي لا تجيد الكذب أبداً، ولو حاولت أن تكذب للاحظ أيّ فرد من أفراد أسرتها، والدها أو أحد أخويها، على الفور، ادعاءها وخمّن الحقيقة.

في الواقع، حتى لو فكرت في المحاولة، لما نجح الأمر فقد فقدت

فرصتها، وترددت طويلاً وأدانت نفسها بصمتها. لو كان بإمكانها أن تنكر ذلك، لخرج الكلام من فمها تلقائياً، وعلى الفور، في ردّ على اتهام ميغيل لها... لأدانته من دون تفكير حتى.

وربما فُسّر صمتها على أنه اعتراف. أمكنها أن تقرأ ذلك على الوجوه من حولها؛ وفي الأنفاس المحبوسة، والهمس المفاجىء.

وظهر ذلك أيضاً في الطريقة التي أرخى به أخواها من قبضتهما على جايك. لم يطلقا سراحه في الواقع، لكن طريقة إمساكهما به لم تعد طريقة معاقبة بعد أن ارتخت عضلاتهما قليلاً.

- مرسيدس...

كان والدها من تكلم فيما التزم الآخرون الصمت التام.

ماذا يمكنها أن تقول؟ ماذا هنالك ليُقال؟ إذا ما أنكرت الأمر، فماذا قد يضيف ميغيل؟ و... وأحسّت بطعم المذلة في فمها حين تذكرت أن جايك يحمل معه «دليلاً». اليد في الذراع التي يمسك بها أليكس قريبة بشكل خطر من الجيب الذي يمكنه إذا ما شاء، أن يسحب منه المنديل الحريري ليزيد من إقناع عائلتها.

اعترفت مرسيدس رغماً عنها: «حسناً، نعم، إنما ليس كما تظنون!».

- وهل من طريقة أخرى؟

لم ترَ والدها يوماً ينظر إليها بهذا الشكل، ولم تشعر من قبل بوخز إدانته، وبالانزعاج من رؤية عينيه الداكنتين تصبحان باردتين وبعيدتين.

لكن، ماذا توقّعت؟ فهذا خوان ألكولار. رجل يعني له إرثه الكاتالاني واسم عائلته كل شيء. ولطالما كانت سمعة العائلة من الأولويات في أفكاره. واتهام ميغيل سلّط الضوء على اسم العائلة بشكل سلبي أمام جمع كبير من الضيوف في هذا العرس الأنيق.

لعله ليس سيئاً بقدر الفريدو مدراتو، الذي تزوّج شقيقها رامون من ابنته للتو، إلاّ أنه لا يزال ينتمي إلى المدرسة القديمة. لعلّه تقبّل عشيقة جواكين السابقة، وهي زوجته الآن، في العائلة، إلاّ أنّ ابن خوان ألكولار

استقلّ عنه وبنى حياته بنفسه. أما التشكيك في سمعة ابنته الوحيدة من قبل الرجل الذي كان من المفترض أن يتزوجها، وفي مكان عام، فمسألة مختلفة.

لا سيّما وأن معظم الموجودين من أفراد المجتمع نفسه الذي نبذ زوجة رامون الجديدة بسبب غلطة صباها.

- أنا...

شرعت تعترض، لكن بدا جلياً أنّ والدها غير مستعد لمناقشة هذه المسألة أكثر.

- سنتحدث في هذا الموضوع لاحقاً... بمفردنا.

- أبي!.

- لاحقاً.

-لكن...

رمق والدها الحشد من حوله بنظرة ثم عاد ينظر إليها بعينين باردتين. بدا جلياً أنه يكافح ليبقى مسيطراً على أعصابه.

- كفى.

ارتفعت يده وشقّت الهواء وكأنه يقطع الحوار بحدّة.

- قلت إني لا أريد أن أتحدّث في الموضوع هنا.

كانت مرسيدس واثقة تمام الثقة من أنّ هذه الكلمة هي كلمته الأخيرة في هذا الموضوع. فقد استدار واستعدّ للسير، جامعاً عباءة الوقار من حوله كما يفعل دوماً عندما يهدد شيء ما رباطة جأشه وهدوءه ومركزه.

- هل يفيد إذا ما قلت لك إننا كنّا مخطوبين؟.

جاء السؤال من آخر مصدر ممكن توقّعته... من جايك نفسه.

جاء بشكل غير متوقّع، وبشكل مجفل للغاية بحيث أسكت الكل وأوقفهم، حتى والدها. في الواقع، كان قد خطا خطوة واستعد للتالية حين أبطأ سيره واستدار.

- ماذا قلت؟.

تمهّل جايك في الرد.

في بادىء الأمر، أدار رأسه يميناً ويساراً، ونظر تحديداً إلى حيث لا يزال أليكس وجواكين يمسكان به. لم يكن بحاجة لأن يتكلّم فقد فهما مغزى رسالته، وأطلقا سراحه ما جعل مرسيدس ترتعش قليلاً. أليكس وجواكين لا يتراجعان أمام أحد؛ لذا لا بدّ أنهما رأيا في هذا الرجل ما يستوجب الاحترام.

- قلت هل يفيد إذا ما قلت لك إنّ مرسيدس وأنا... مخطوبان؟.

تشابكت العينان الزرقاوان بعينيّ مرسيدس، متحدّياً إياها أن تعترض. تحدّاها أن تنكر تأكيده. إلاّ أنها كانت لا تزال مصدومة للغاية ومرتبكة ومذهولة من كل ما يحصل بحيث عجزت عن التفكير ومعالجة المسائل بمنطق. هل ادّعى حقاً أنهما...؟.

سأله والدها وهو يحملق فيه بضراوة أكبر، والغضب ظاهر في كلماته: «هل طلبت منها أن تتزوجك؟ ووافقت؟».

- هذا ما تعنيه عادة كلمة خطوبة.

لم يكن جايك مستعداً للتنازل أو حتى للتراجع قليلاً. نظر إلى خوان مباشرة، وأبقى رأسه عالياً بزهو وفخر بقدر الرجل العجوز. ومن دون أن يشيح بنظره، ملس كميّ سترته الأنيقة حيث كان أخواها يمسكان به، معيداً القماش إلى أناقته الناعمة السابقة.

- وهل لا تزالان مخطوبين؟.

- لِمَ لا تطرح السؤال عليها هي؟.

وعادت النظرة الفاتحة اللون مجدداً إلى وجه مرسيدس، ثم أشاح بها سريعاً. لكنها أحست أنها فهمت... علماً أنها لم تعرف لماذا. لسبب ما، لا يعرفه سواه، أعطاها جايك فجأة فرصة لتستعيد قيمتها في عينيّ والدها. ويعود لها أن تستفيد من هذه الفرصة، هذا ما عنته نظرته السريعة، اللامعة.

- مرسيدس؟.

التفت والدها إليه، وعلى وجهه نظرة استفهام.

- هل أنت مخطوبة لهذا الرجل؟.

فتحت مرسيدس فمها مرتين لتجيبه، لكن صوتها خانها في كل مرة. لم تجرؤ على النظر باتجاه جايك، خوفاً من أن تفقدها نظرة عينيه الباردة، الواضحة والمباشرة، قدرتها على التفكير وتتركها عاجزة عن تشكيل كلمة واحدة.

حثّها جايك: «لقد تشاجرنا، أليس كذلك؟».

- ممم...

هذا كل ما تمكّنت من قوله.

- ورحلت وعدت إلى هنا... رافضة أن تريني مجدداً.

- نعم... هذا صحيح.

هذا على الأقل يمكنها أن توافق عليه وتعني كلامها. فهذا ليس كذباً.

- وقد لحقت بها لأرجوها أن تعيد التفكير...

بدأ جايك يبالغ كثيراً الآن.

- أنت...

أدارت مرسيدس رأسها اشمئزازاً وحملقت فيه في تأنيب غاضب، وقابل نظرة عينيها الحادة بعدم مبالاة لا تعكس أيّ ندم أو أسف.

- لكن، عندما وجدتها في الحديقة مع ميغيل، أخشى أني فقدت أعصابي.

زاد من اضطراب مرسيدس وتشوّشها أنه تقدّم نحوها... من دون أن يحاول أحدهم ايقافه! بل على العكس، اكتفى والدها بمراقبة ما يجري فيما ارتسمت على وجه اليكس ابتسامة صغيرة، خبيثة، ابتسامة جعلتها تصرّ أسنانها لتمنع نفسها من سؤاله عن سبب ابتسامته هذه. تباً لاليكس!.

- ربما يمكننا التوجّه إلى مكان أهدأ لنتحدّث في الموضوع؟ أنا واثق من أنّ كلينا ارتكب أخطاءً يا مرسيدس.

جعل الأمر يبدو منطقياً للغاية. بدا منطقياً جداً، كما خطر لمرسيدس

المذعورة.

إذ يبدو أنه كسب الجميع لجانبه، بحسب ظاهر الأمور. فمزاج الحشد الذي تجمّع بعد سماع صرختها الغبية والذي لا يزال حاضراً، تغيّر بشكل ملحوظ. والتعابير المشدودة، القلقة، وغير الموافقة التي تغيّرت لتصبح نبذاً ناقداً بعد سماع اتهامات ميغيل، تحوّلت الآن إلى ما يشبه الفضول الفاضح والصرف.

شجار محبين.

كادت تسمعهم يدلون بهذا التعليق؛ إذ قرأت أفكارهم في عيونهم. شجار بين شخصين مخطوبين، موضوع سيثير الأقاويل ويشغل الناس في الأيام المقبلة، إنما ليس الفضيحة التي اعتقدوا بوجودها. وهي تخاطر بجعل الأمر أكثر من فضيحة إذا ما رفضت اعتذار جايك الآن. ولم تجرؤ على لفت الأنظار إليها أكثر، فهذا هو المجتمع الذي حوّل حياة استريللا عروس شقيقها الجديدة، إلى جحيم حتى استعادت احترامها بزواجها من رامون. وسيعاملونها المعاملة نفسها إذا ما استطاعوا أن يشتموا رائحة شيء يمكنهم أن يستخدموه ضدها.

وإذا ما أنكرت كلامه، فلدى جايك سلاح آخر في جعبته.

هل هي متعمدة، تلك الطريقة التي أراح بها يده بخفة على جيب سترته الأيسر؟ الجيب حيث لا يزال يخفي منديلها، المنديل الحريري الذي يستطيع إخراجه... وعرضه على أبيها وأخيها جواكين. هذا المنديل الذي يعرفانه جيداً والذي يعلمان أنه لا يفارقها أبداً، لشدة تعلقها به وبذكرى والدتها التي أهدتها إياه. وإذا ما فعل فسيثبت كلامه ويحرجها أمامهما وأمام الموجودين ويجعلها تبدو كاذبة في نظرهم.

- أخطاء...

بدا أنّ الكلّ تقبّل هذه الخطوبة، وأمكنها أن ترى ذلك في وجوههم وفي تراجع حدة التوتر من حولها. وبدلاً من أن تحاول استعادة رباطة جأشها وشجاعتها، سعت لئلا تخاطر بإثارة المشاكل مجدداً... ليس هنا،

وليس الآن، وليس الليلة.

افترضت أنّ عليها أن تكون ممتنة لجايك على تدخّله وادعائه أنهما مخطوبان. ولم يكن بإمكانها أن تتخيل لما فعل هذا. لكن الخطوبة يمكن فسخها، أليس كذلك؟ وهي لا تدوم إلى الأبد. ستختار الحل الأسهل الليلة وغداً لناظره قريب.

غداً، ستجد حلاً لمشكلة جايك تافرنر.

* * *

لم يعرف جايك لما ادعى أنه ومرسيدس مخطوبان. لقد تصرّف بتلك الطريقة الغريزية نفسها التي دفعته إلى التدخّل حين رآها في ورطة مع ميغيل هرنانديز؛ حين ادّعى أنها امرأته أمام الرجل الآخر. لكنه يعرف أنّ تصرفه أحدث الأثر الذي أمل أن يحدثه وجعل الحشد يفقد اهتمامه بما يحدث. فقد بدأ الحضور بالتفرّق، وبالعودة إلى قاعة الرقص المتلألئة بالأنوار حيث لا تزال الفرقة تعزف الموسيقى والطاولات ترزح تحت الأطباق المختلفة والغنية. ما بدأ كفضيحة محتملة يمكن أن تشحذ ألسنتهم، تحوّل إلى شجار أحبّة ليس إلاّ.

إنما كان يمكن أن تجري الأمور بشكل مغاير كلياً. فالغضب على وجهيّ شقيقيّ مرسيدس حين أمسكا به كان حقيقياً بما يكفي... وأمكنه أن يشعر بالكدمات على ذراعيه من جراء ذلك. كما كان ألكولار الأب يستشيط غضباً... يشعر بالإهانة لأن ابنته الوحيدة تورّطت في أحداث مشينة. بدا وكأنه مستعد لإنكارها بسبب ما حصل.

وهذا تصرّف نموذجي في أسرة ألكولار. إذا لم تنطبق على أحد ما معاييرهم... إذا ما ظنوا أنه ليس جيداً بما يكفي بالنسبة إليهم... يتخلّون عنه سريعاً ومن دون أدنى تردد.

وبدت مرسيدس ضائعة جداً، مذهولة من رد فعل والدها إلى حدّ جعله يشفق عليها، فتدخّل واختلق كذبة أنهما مخطوبان.

إلاّ أنّ هذا لا يعني أنه سيجعلها تهرب من المصيدة.

همست رداً على تعليقه: «أخطاء، نحن... أنت...».

قاطعها والدها من دون أن تختفي البرودة كلياً من صوته، وكلماته لا تزال تعكس الغضب: «مرسيدس، ألن تعرفينا إلى ... خطيبك؟».

لاحظ جايك أنها أجفلت عندما لفظ الكلمة الأخيرة. لكن لا يمكن له أن يعرف ما إذا كان ردّ فعلها ناتجاً عن وقوعها في ورطة ليست في الحسبان أم لأنها تكره فكرة أن يرتبط اسمها باسمه ومصيرها بمصيره. إنما، ومهما كان شعورها، فقد رمقته بنظرة إدانة قاتلة وهي تكافح لتتمكّن من الرد على والدها.

- هذا جايك... جايك تافرنر.

تمكّنت من أن تجعل الوصف يبدو كوصف شيء بغيض، إذ زمّت فمها في اشمئزاز عند ذكر اسمه وكأن لسانها يرفض النطق به. وبدا جلياً أنها لم تكن سعيدة حين انقض والدها على الاسم باستساغة: «تافرنر؟ هل لك علاقة بتافرنر للاتصالات؟».

- هكذا التقينا... في حفل لوسائل الاعلام.

تدخّل جايك عندئذٍ، موجهاً الحديث بعيداً عن موضوع اسمه وخلفيته الخطر: «وقد صرعني جمال ابنتك على الفور».

من حسن الحظ أنّ أمه تزوّجت رالف تافرنر بعد وفاة أختها بفترة وجيزة. وبالتالي، ما من سبب لكي يربط خوان ألكولار بين مارغريت داريو وأختها اليزابيت جنسن من امبراطورية تافرنر للاعلام.

- لكننا، ولسوء الحظ، تشاجرنا على موضوع تافه...

انفجرت مرسيدس تقول: «موضوع تا... لِمَ، أنت...!».

- اهدئي حبيبتي!

وضع جايك يداً على فمها يسكتها، وقد نجح في جعل هذه الحركة تبدو حركة رجل محب فيما بذل في الواقع جهداً كافياً ليسحق سلسلة الاعتراضات التي كانت ترغب في قذفها في وجهه.

- أعلم أنّ الموضوع لم يكن تافهاً بالنسبة إليك...

عيناها اللامعتان أعلمتاه أنّ النبرة المحبّة، ولمسة التأنيب اللطيفة زادتا من غيظها، حتى وإن أقنعتا والدها. وأنبأته النظرة الغاضبة بأنه سيعاني من كلامه هذا لاحقاً. ستنتقم منه بأيّ طريقة ممكنة.

لكن حتى ذاك الحين، تبقى السيطرة له وهو مصمم على الاستفادة من هذا الوضع.

وأدرك أنها لن تجرؤ على معارضته الآن. ولو رغبت في فضح قصته على أنها كذبة لفعلت ذلك ما إن تكلم. لقد فات الأوان الآن، وسيتطلب الأمر الكثير من التفسيرات المعقّدة التي لن ترضى بها عائلتها أو المجتمع الذي تعيش فيه.

- لكن، ألا يمكننا أن ننسى الموضوع ولو لليلة على الأقل؟.

ومن خلفهما، تململ جواكين ألكولار وتقدم إلى الأمام، ثم قال بحزم: «أظن أنّ الوقت حان لكي نعود إلى الداخل لتستمر الحفلة. يُفترض أنّ يكون هذا الاحتفال حفل زواج. سنتركك أنت ومرسيدس وحدكما يا تافرنر. يبدو لي أنّ لديكما أموراً تناقشانها».

وعكست نبرته بوضوح أنه لا يحسد جايك على تجربته. وهذا ما رأته مرسيدس جلياً حين حوّلت نظرتها الغاضبة من وجه جايك إلى وجه أخيها فيما أخذت نفساً عميقاً في محاولة منها لتخليص فمها من يد جايك بما يكفي لتعترض.

- هيا، ادخلوا وسنلحق بكم بعد لحظات.

قال جايك هذا بسرعة، وقد أدرك أنه إذا ما فقد سيطرته عليها الآن، فسيصبح الوضع أشبه بفتح أبواب الجحيم.

التهاؤه المؤقّت وهو يراقب أباها وشقيقها يعودون إلى قاعة الرقص، أعطى مرسيدس فرصة صغيرة، فأبعدت فمها عن يده، والتفتت لتصرخ لأسرتها المنسحبة: «انتظروا! لا ترحلوا...».

لم تنجح أبداً في إنهاء جملتها. إذ أمسك جايك بذقنها وأجبر وجهها على الاستدارة نحو وجهه مجدداً، معيداً الكلمات المتبقية إلى حلقها بعد أن

أقفل فمها بيده فيما أحاطت ذراعه بخصرها، يضمها إليه بقوة معاقبة وشغف، ما جعلها تهمهم قليلاً معبّرة عن صدمتها واعتراضها.

وفيما أبقى عيناً على عائلتها التي راحت تبتعد عنهما، أبقاها محتجزة بين ذراعيه بقدر ما شاء، كابحاً مقاومتها من دون جهد يذكر. ولم يخفف من قبضته إلاّ حين توقّفت أخيراً عن محاولة الافلات منه.

وعندئذٍ، عانقها كما ينبغي.

عانقها كما رغب في أن يفعل منذ أن دخلت الكنيسة في بذلتها الزرقاء الملفتة. عانقها كما عانقها للمرة الأولى، في لندن، في غرفة الطعام في بيته. عانقها كما يطالبه جسده المشتاق منذ أن خرج إلى الحديقة ورآها، وذراعا ميغيل تحتضنانها.

- مرسيدس...

همس باسمها بصوت عميق، خرج من حنجرته مخنوقاً وجاء ردّها الوحيد تنهيدة ناعمة وخفيفة.

كان عناقها مذهلاً تماماً كما يتذكّره. رائحتها رائعة، لمستها رائعة، كلها رائعة. مجرد إحساسه بها بين ذراعيه جعل أفكاره تغيم. وعندما توقّفت بشكل مفاجىء وغير متوقّع عن مقاومته، واستسلمت لعناقه وتجاوبت معه، اشتدت ذراعاه حولها بطريقة مختلفة جداً، وانتفض قلبه في صدره وتسارعت أنفاسه وأصبحت غير منتظمة وهو يشعر بنعومة بشرتها.

وكان الأثر على مرسيدس أشبه بكارثة. فبعد أن كانت راغبة، ومطيعة ومتجاوبة، تراجعت فجأة لتعود إلى عالم الواقع في لحظة. أجفل جسدها الرشيق وابتعد عن جسده بقدر ما استطاعت ضمن سجن ذراعيه، وراحت تتململ من دون توقّف في محاولة منها للتحرر من قبضته.

وفي غضون نبضة قلب، عاد المنطق ليؤكد وجوده، كابحاً جماحهما.

هذا ليس الوقت المناسب، وهنا ليس المكان المناسب.

لكن سيكون هناك وقت ومكان مناسبين في مرحلة ما في المستقبل، كما وعد نفسه.

وعندما يحين ذلك الوقت، ستكون مستعدة وراغبة. ولن تقاوم، ولن تواجهه، ولن تتراجع ويجفل جسدها ويتحوّل إلى جبل جليد.

يمكنه أن ينتظر هذا. واعترف بأنّ الأمر يستحق الانتظار.

إنما الآن عليه أن يكسب عائلتها أيضاً إلى جانبه. لقد رحبت به العائلة بعد أن علمت أنه طلب الزواج من مرسيدس. والخبر الثاني الذي يصب لصالحه هو أنه يملك تافرنر للاتصالات. لكن، إذا ما أدركوا أنه ليس صديق رامون وحسب، بل ابن خالته أيضاً، وفرد من أفراد عائلة جنسن... الأسرة التي أقسمت على ألاّ ترتاح حتى ترى خوان ألكولار في أسوأ حال كما فعل بشقيقة أمه.. فسيتغير كل شيء. حتى الابتسامات المؤدبة، التافهة ستذوي وسيجد نفسه مجدداً في الخارج، بعد أن تغلق أبواب مجتمعهم الخشبية السوداء في وجهه.

لعل كل ما حصل عليه الآن هو ترحيب فاتر. إنما الترحيب الفاتر أفضل من البارد... وهو بالتأكيد أفضل من لا شيء.

وهكذا، وفيما كان يراقب والد مرسيدس وأخويها وهم يعودون إلى الضوء والموسيقى في قاعة الرقص، كبح بقوة متطلبات جسده وأجبر نفسه على رفع رأسه والنظر في عينيّ مرسيدس العميقتين، الداكنتين اللتين أغشاهما ضوء القمر بالظلال.

- أظن أنه من الأفضل أن نلحق بهم. إذا ما فهمت أبوك جيداً فأعتقد أنه لن يسمح لنا بالتأخر أكثر... سواء أكنا مخطوبين أم لا.

- نحن لسنا مخطوبين وأنت تعلم ذلك! لقد كذبت!.

عارض كلامها بنعومة ماكرة وساخرة: «ما من كذب سنيوريتا، أنا لم أقل أيّ شيء... بل سألت إن كان يفيد لو قلت إننا مخطوبان وتكفّل والدك بما تبقى».

- كما كنت واثقاً من أنه سيفعل!.

أدركت مرسيدس أنها في أعماق نفسها حانقة من نفسها وليس منه... أو على الأقل جزئياً من جايك والجزء الآخر من نفسها.

لم تستطع أن تصدّق ما فعلته لتوّها. فبعد كل ما حصل، وبعد الطريقة التي عاملها بها، والطريقة التي استغل بها الوضع هنا ومع والدها، كانت من الضعف بحيث تجاوبت معه حين عانقها.

- لا أريد أن أرتبط بك! لا أريد أيّ صلة أو علاقة بك!.

- إذن، كنت تفضّلين أن أخبر والدك وشقيقيك... وأصدقاءكم، وجيرانكم وأقاربكم ومعارفكم... أنك خرجت معي ورافقتني إلى شقتي ونحن بالكاد نعرف بعضنا البعض؟ لا...

أجاب على سؤاله بنفسه بعد أن رأى وجهها يتبدّل ثم أردف: «ما كنت لترغبي بذلك بالطبع. لذا، نحن مخطوبان، فهذا يناسبني ويناسبك».

- هذا تحديداً ما لا أفهمه! لمَ يناسبك هذا؟.

زم جايك فمه ودلّك ذراعيه حيث أمسك به أليكس وجواكين.

- إذا ما أمسك بك شقيقاك الجلفان الضخمان وحدّقا إليك بعينين تعكسان الرغبة في القتل لأنك لطّخت سمعة الأخت الصغيرة الغالية، فصدقيني، ستقولين أيّ شيء لجعلهما يتراجعان.

وعندما ذابت شعلة الأمل الضئيلة التي بالكاد كانت مضاءة في قلبها وانطفأت؛ عندئذٍ فقط أدركت مرسيدس أنها كانت موجودة. والفراغ الذي أحست به أعلمها بما كانت تأمله... وكم هي غبية وساذجة للتفكير حتى في ذلك.

هل حلمت فعلاً بأن لدى جايك دافعاً لطيفاً ورقيقاً جعله يدّعي أنهما مرتبطان؟ وأنه فعل هذا ليحميها، ويدافع عنها في وجه الاستنكار البارد، والنبذ الاجتماعي الذي قد تواجهه كما حصل مع استريللا؟.

لا بدّ أنها غبية وساذجة إذا ما فعلت! لقد تصرّف على هذا النحو بدافع شخصي بحت... بهدف الدفاع عن نفسه في وجه غضب والدها وشقيقيها. لم تخطر في باله أبداً. وإذا ما كانت ضعيفة بما يكفي لتدع هذه الفكرة تخطر في بالها... وفي قلبها، وهذا أسوأ... فقد زاد هذا الأمور سوءاً وحسب.

- وهل عانقتني لتتخلّص من شقيقيّ أيضاً؟.

تكشيرة شيطانية ارتسمت على وجه جايك القوي. تكشيرة حرّكت فمه من دون أن تصل إلى عينيه وتضيئهما.

- لا، العناق حصل لأمنعك من الصراخ وتقويض كل ما فعلت. كيف سيبدو الأمر برأيك لو أظهرت أنك تخشين البقاء معي وحدك، بعد أن أقنعتهم لتويّ أننا مخطوبان... ونحب بعضنا البعض بجنون؟.

بقي يراقب أسرتها وهي تبتعد، وانتظر حتى أصبحوا بعيدين عن أنظارهم وعاجزين عن سماعهم، قبل أن يتوقف عن معانقتها.

إدراكها لذلك شكّل جرحاً عميقاً في قلبها، فجعله أوسع وأعمق وأشد ألماً من قبل.

لقد فعلتها مجدداً! تركته يسيطر عليها كما فعل تلك الليلة في لندن. يكفي أن يلمسها، ويأخذها بين ذراعيه حتى تذوب كالشمع بفعل الحرارة.

عناق واحد كان كفيلاً بجعل دقات قلبها تتسارع، والدم يتدفّق بقوة في عروقها. شعرت وكأنها تقف تحت أشعة الشمس الساطعة في منتصف النهار بدلاً من ضوء القمر البارد، الشاحب.

لقد تجاوبت كلياً مع ذاك العناق بعد أن وجدت نفسها عاجزة عن كبح مشاعرها، في حين أنّ المسألة لم تتعدَ بالنسبة إليه كونها طريقة محسوبة ببرودة لإبقائها هادئة وصامتة، ومنعها من إفساد خططه.

لكن ما هي خططه؟ ما الذي سيكسبه من هذه الخطوبة المزعومة؟.

سألته: «لمَ عليّ أن أدعك تنجو بفعلتك؟ ما الذي سيمنعني من العودة إلى قاعة الرقص وإطلاع الجميع على الحقيقة؟».

عقد جايك ذراعيه على صدره، وتراجع ليستند إلى شجرة ثم راح يتأمل وجهها المستنكر وعينيها اللتين تلمعان غضباً. في الواقع، بدا وكأنه يفكر في سؤالها، لكن تعبيراً ارتسم على وجهه المذهل حذرها من أنّ جوابه حاضر والتأخير في الرد ما هو إلاّ من قبيل الاستعراض.

وأخيراً قال: «سمعتك، اسمك الطيب... في المنزل وفي محيطك. ردّ

فعل والدك ورضاه».

اعترفت مرسيدس في سرّها بأنه ضرب على وتر حساس لديها فيما أجفلت من تعليقه المبطّن. لا بدّ أنه رأى وجهها ولاحظ ردّ فعلها في وقت سابق، وها هو يستخدم الآن ما اكتشفه لمصلحته الخاصة.

- وماذا عن...؟.

- حسناً، حسناً! فهمت، ووجهة نظرك واضحة! أنا عالقة معك.

- نحن عالقان مع بعضنا البعض.

هذه النبرة المنطقية أزعجتها فعلاً. وشعرت مرسيدس كما لو أنّ الكلمات انتزعت طبقة من جلدها، وتركت أعصابها معرّضة للأذى.

- لا يمكننا أن نفعل هذا! لا يمكنني! هذا مجرد ادعاء... وليس صحيحاً أبداً.

عندئذٍ، علّق جايك وهو يشير برأسه نحو المنزل: «لكنهم لا يعلمون ذلك. وإذا ما لعب كل منّا دوره بعناية، فلن يكتشفوا الحقيقة أبداً».

حدّقت إليه مرسيدس في شكّ وتشوّش. ما الذي يجري بالضبط داخل هذا الرأس الوسيم؟ ما هي الأفكار التي تعجّ في هذا العقل البارد، المحلل الذي تحرك بسرعة وفعالية ليجد حلاً لوضع كاد أن ينفجر؟.

- و... إلى متى سنضطر للعب دورينا؟.

وبدا مجدداً أن جايك يفكر في سؤالها، مع أنها كانت واثقة تمام الثقة هذه المرة من أنه يعرف جيداً ما سيقوله.

- بقدر ما يتطلب الأمر.

- أي أمر؟.

تحرك الفم المثير وكأنه يكاد يبتسم، لكنه عاد وكبح هذا الدافع بقوة.

- حتى أحصل على ما أريد.

- حتى...

هل عليها أن تسأل؟ هل ترغب فعلاً في ذلك؟ شكّت مرسيدس في أنها ترغب فعلاً في معرفة ما يريده، إلاّ أنها عجزت عن منع نفسها.

www.elromancia.com

- وما الذي تريده من كل هذا؟.

هذه المرة، لم يستطع أن يكبح الابتسامة، فارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وشيطانية وأظهرت أسنانه البيضاء تحت ضوء القمر.

- مرسيدس، ألم تكتشفي السبب بعد؟ ظننت أنّ دافعي واضح.

ردّت مرسيدس بصوت جعله التوتر رفيعاً: «ليس بالنسبة إليّ. عليك أن تنطق بما تريده».

وهكذا فعل.

- ما أريده من كل هذا يا مرسيدس، يا عزيزتي، هو أنت. أريدك كعشيقة لي. ولطالما رغبت في ذلك، منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها... ولم يتغيّر شعوري. أريدك وأنوي الحصول عليك، بطريقة أو بأخرى.

٩ - سنجد تسوية

تثاءبت مرسيدس وتمطّت ثم فركت عينيها بقوة في محاولة منها لإيقاظ نفسها، وللعودة إلى الحياة.

محاولة فاشلة، لا جدوى منها. ما كان بإمكانها أن تشعر بأنها مستيقظة، وحيّة حتى لو حاولت. خمس ليالٍ من دون نوم يمكن أن تفعل بها هذا.

خمس ليالٍ أمضتها تتقلّب في فراشها، غير قادرة على الارتياح، عاجزة عن النوم.

خمس ليالٍ أمضتها مستلقية على ظهرها... تحدّق إلى السقف المطلي باللون الأبيض محاولة التفكير في حلّ ما.

حاولت ألاّ تفكر في جايك.

مجرد التفكير في جايك يؤرّق جفنيها ويحرمها نعمة النوم، مهما بلغ التعب منها ومهما أجهدت نفسها أثناء النهار.

وقد حاولت ذلك... حاولت جاهدة.

منذ اللحظة التي اضطرت فيها إلى العودة إلى قاعة الرقص، ليلة زفاف رامون، حاولت بطريقة أو بأخرى، أن تطرد جايك تافرنر من رأسها... لكنها فشلت فشلاً ذريعاً.

كان من المستحيل أن تفعل أيّ شيء تلك الليلة، فبعد أن أصرّ جايك على أن يلعبا مسرحية الخطيبين الجديدين، أصبحت مجبرة على البقاء بقربه إلى حدّ كرهته. كان عليها أن تبقى إلى جانبه، فلم تتمكّن من الخلاص منه أبداً.

لذا، رقصت معه وتحدّثت معه، وأجبرت نفسها على رسم ابتسامة مشرقة على وجهها وعلى إظهار الاهتمام بكل ما يقوله حتى شعرت وكأن

www.elromancia.com

عضلاتها المشدودة ستتكسّر بفعل التوتر والإجهاد. كان التعب قد بلغ منها مبلغاً بحيث عجزت عن التفكير أو الشعور، ما ساعدها على تحمّل الاعلان الذي خطر لوالدها أن يقوم به.

قال خوان بعد أن وقف وسط قاعة الرقص حيث تعزف الفرقة الموسيقية: «كلكم تعلمون أننا نحتفل الليلة بزفاف أحد أبنائي، رامون، وعروسه الجميلة استريللا. لكن بعضاً منكم لا يعرف أنّ لدى أسرتي سبباً آخر للاحتفال...».

غمغمت مرسيدس: «آه، لا! لا! أرجوك، لا! آه، لا تفعل!».

لكن والدها لم يسمعها بالطبع. وحتى لو سمعها، فهي واثقة من أنه ما كان ليكترث لكلامها. كان مصمماً على القيام بهذا الاعلان وما من شيء يمكن أن يقف في طريقه.

- يسعدني كثيراً أن أعلن الآن أنّ ابنتي الحبيبة، الوحيدة، مرسيدس، أعلنت ارتباطها... بجايك تافرنر. صاحب شركة تافرنر للاتصالات.

- ابتسمي!

همس صوت من خلفها بهذه الكلمة، فأدركت أنّ جايك الذي غاب عنها لدقائق معدودات، دقائق كانت بحاجة ماسة إليها، عاد ليلعب دور الخطيب المحبّ مرة أخرى.

- لا أشعر برغبة في الابتسام.

غمغمت مرسيدس بهذا الرد من زاوية فمها، وهي تدرك أنّ جايك وحده سيسمع كلماتها التي كتمها التصفيق الذي تعالى من الحضور رداً على اعلان أبيها.

- أنا أيضاً لا أشعر بأيّ رغبة في الابتسام، لكن الكل يتوقّع منا ذلك... فابتسمي!

وأحاط خصرها بذراعه وشدّها إلى جسده الدافىء والقوي، ورأت بطرف عينها جايك يبتسم ابتسامة عريضة رداً على التهاني الموجّهة إليهما.

حاولت بضعف أن تحذو حذوه، مجبرة زاويتي فمها الذي رفض أن يطاوعها

على الارتفاع، وحدّيها على التغضّن في ما قد يبدو من بعيد كتلك الابتسامة التي طالبها بها جايك.

جايك تافرنر... صاحب شركة تافرنر للاتصالات. ما كان والدها ليسقط هذه النقطة بالطبع. لا بدّ أنه يعتبر هذه الخطوبة ضربة موفّقة، ويودّ أن يعلم الموجودون كلهم بذلك. فبعد أن أكسبهم زواج رامون من استريللا شركة التلفزيون العائدة لوالدها كجزء من مهر العروس، ها هي تربط امبراطورية ألكولار الاعلامية بالشركة البريطانية الضخمة.

أو على الأقل هذا ما ظن أنّ المستقبل يخبّئه له. وارتعشت مرسيدس في أعماقها لفكرة ما قد يحصل حين يكتشف الحقيقة.

وازدادت الرعشة وتحوّلت إلى رعدة حالما أحست بجايك يتحرك. وما هي إلا لحظة حتى هددت ركبتاها بالارتخاء بمجرد أن شعرت بذراع جايك تشتدّ على خصرها وتمسك بها بقوة ليعانقها بشغف.

- هذا جزء صغير من الحد من الضرر.

همس بذلك ما جعل حنجرتها تجف ورأسها يدور ثم أردف: «في حال بقي أي أثر من شجارنا والهرج والمرج الذي حصل في الخارج، فقد سعى والدك إلى التأكد من أنّ الكل يعرف القصة الحقيقية».

- لكنها ليست القصة الحقيقية.

خرجت الكلمات من فمها بصوت أشبه بفحيح الأفعى، فيما بدا أنّ دماغها يكاد ينفجر بعد أن انقسم بين رغبتها في الفرار من قبضته التي تتحكم فيها وحاجتها إلى الاستناد إليه بضعف وتركه يعانقها بكل بساطة.

وتابعت تقول: «وأنت تعرف ذلك تمام المعرفة!».

ردّ جايك متجاهلاً الاعتراض الغاضب في صوتها: «هل لي أن أقترح أن تتابعي لعب دورك قبل أن يلاحظ أحدهم أنك تبدين كشخص يعاني من سوء هضم شديد بدلاً من تلك العروس المبتهجة التي تهيم وجداً التي يفترض بك أن تكوني، ويبدأ بالتساؤل ما الخطب؟».

- سيسرّني كثيراً أن أخبرهم!

أنبّها جايك بلطف مفرط: «كاذبة. أنت تفضّلين حالياً الموت على الاعتراف بما قد يعرّضك للإذلال العلني. لذا، لمَ لا تبذلين بعض الجهود لتبدو هذه النظرة واقعية على الأقل؟ عندئذٍ، وإذاً ما أجدت لعب دورك، فسأدعك تعاقبينني لاحقاً... عندما نصبح وحدنا».

الشهوانية الخفيّة والعميقة في نبرته لم تترك لدى مرسيدس مجالاً للشك في ما تخيّله من «عقاب». كانت الصورة إباحية إلى درجة أنها وصلت مباشرة إلى ما تبقّى من دماغها كالبخار المسكر فأطاحت به في ثوانٍ.

وفي محاولة منها للسيطرة على أفكارها الجامحة، عضّت بقوة على شفتها السفلى الزهرية اللون، كابحة الأنين الخائن الذي هدد بالخروج من بين شفتيها.

أنّى له أن يعرفها جيداً بهذا الشكل؟ فهي لم تمضِ سوى ثلاثة أيام برفقة هذا الرجل... ثلاثة أيام لم تمضها بأكملها معه... وها هو قادر على قراءة أفكارها كمن يقرأ في كتاب مفتوح. بدا قادراً على تفسير أفكارها، وعلى تنبؤ بما ستقوله وما تشعر به. وقد استخدم هذه المعرفة بقساوة، واستغل الوضع... واستغلها هي... كما يشاء.

فهل يعلم أنّ ذراعه التي تحيط بخصرها هكذا تثير مشاعرها إلى أقصى حدّ وأنها تكافح بيأس لإخفاء هذه المشاعر؟ لا بد أنه يعرف. كيف يمكن ألاّ يعرف.

لعله يعرف ذلك، وهذا ما يريده في أعماقه أيضاً؟.

لا بدّ أنه أدرك كم ترغب في إراحة رأسها على كتفه، كم تودّ لو أن ذراعيه تحتضنانها بشغف أكبر يجعل قلبها يدوّي كأعنف عاصفة شهدها العالم. لا بدّ أنه أحس كم تتمنى لو أنّ قاعة الرقص كلها، وكل من فيها يختفون، يتبخرون، فلا يبقى في العالم سواهما، هي وهذا الرجل. هذا الرجل الذي بإمكانه أن يحوّلها إلى شخص مختلف كلياً، شخص لا تعرفه أو تتعرف إليه. فبين ذراعيه، تختفي مرسيدس المنطقية والمسيطرة على نفسها لتحلّ محلها امرأة مشبوبة العاطفة، امرأة بالكاد تستطيع كبح رغباتها.

راحت مرسيدس تتقلّب الآن في فراشها متعبة، مضطربة لمجرد ذكرى ما شعرت به حينذاك. شعرت بأن الأغطية دافئة جداً وثقيلة جداً، فرمتها جانباً وهي تهمس بشتيمة، غير مهتمة ما إذا سقطت في الجهة الأخرى من السرير.

بطريقة ما، كبحت جماح نفسها وقاومت رغباتها، رغم أنّ كل عصب في جسدها صرخ معترضاً بغضب بسبب العذاب الذي أنزلته به. لم تستسلم للإغراء الذي عذّبها، ولا يمكنها الآن سوى أن تشكر الله لأنها تمكّنت من الحفاظ على رباطة جأشها. فتعليق جايك التالي أوضح لها كم كانت لتبدو غبية وساذجة لو أظهرت له ما تشعر به.

فذهنه مشغول كلياً بالمسائل العملية وبالحاجة إلى متابعة الخدعة التي ابتكرها ليقنع أسرتها وأصدقاءها. ما من شيء عاطفي في أفكاره.

- ربما ينبغي أن تعرفي أين أقيم؟ سيبدو الأمر غريباً إن لم يكن لدى خطيبي المزعومة أيّ فكرة أين يمكن أن تجدني بعد انتهاء هذه السهرة... سأبدو كسندريللا بصورة معاكسة.

- بالطبع...

وتنهدت، مدركة أنه محق ومتمنية لو لم يكن كذلك. وتابعت تسأل: «أين ستكون؟ أيّ فندق؟».

- أنا لا أنزل في فندق، بل أقيم في المدينة. أعطاني رامون شقته لأستخدمها أثناء غيابه.

- رامون؟ آه، طبعاً، فأنت ضيفه. إذن، كيف تعرّفت إليه؟ لم تأتِ على ذكر الأمر من قبل.

تجنّب جايك إعطاءها جواباً قاطعاً واكتفى بالقول: «نحن نعمل في المجال نفسه».

إذا ما أدركت كم يعرف رامون جيداً، فقد تبدأ بجمع الأمور مع بعضها البعض لتصل إلى نتيجة لا يريدها أن تفكّر فيها حتى.

- ولكم من الوقت ستستخدم شقته؟

- ساعتني بها أثناء غيابه في شهر العسل.
- لكنه سيغيب، هو واستريلا، مدة شهر!.
- إذن، سأقيم في شقته أثناء هذا الشهر.

لا يمكنه ذلك. آه، أرجو ألاّ يكون هذا صحيحاً! أرجو من الله أن يكون كلامه مجرد مزاح... وأنه اختلق هذه القصة بأكملها!.

نهضت مرسيدس من فراشها، بعد أن عجزت عن البقاء هادئة ثم توجهت إلى النافذة وهي تمرر يدها في شعرها الأسود، الحريري، الطويل.

ظنت أنه سيبقى ليوم أو اثنين... ثلاثة أيام كحدّ أقصى. ولن تحتمل سوى بضع ساعات في اليوم لعب دور الخطيبة ثم يرحل عائداً إلى انكلترا فترتاح وتتحرر منه.

وبعد ذلك؟.

حسناً، ستتخذ قرارها لاحقاً. يمكنهما أن يطيلا المسرحية قليلاً، وأن يأخذا الأمور بروية، فيتركان ذكرى تلك الليلة في حدائق القصر تذوي وتغيب عن أذهان الناس حتى ينسونها، أو حتى تشغل بالهم فضيحة أخرى محتملة. عندئذٍ، يمكنها أن تلمّح إلى وجود خلافات بينها وبين جايك، وأنهما يتشاجران ويواجهان بعض المشاكل. يمكنها حتى أن تقوم برحلة إلى انكلترا، بحجة مناقشة مشاكلهما ومحاولة ايجاد حلّ لها، لكنها «ستفشل» طبعاً.

وهي ليست مضطرة حتى لرؤية جايك في أيّ مرحلة من هذه المراحل. يكفي أن تقول إنها قابلته.

ويمكنها بعدئذٍ أن تعود إلى المنزل مع قصة عن أنّ الأمور ساءت للغاية... وأن شجاراً عظيماً وقع بينهما... فقررا أن ينفصلا عن بعضهما البعض... لا، لا يمكن إصلاح الأمور، ما من أمل أبداً. قد تضطر إلى التظاهر بالحزن والأسى، لكن هذه الحالة لن تدوم طويلاً. حينذاك، ستنتهي هذه المهزلة وتعود حرّة.

بدت لها هذه الفكرة الآن معدومة الأمل وحلماً سخيفاً. فبدلاً من

ذلك، ستضطر للعب دور خطيبة جايك لما تبقى من الأسابيع الأربعة، أثناء إقامته في شقة أخيها التي لا تبعد سوى عشر دقائق عن منزلها.

أمضت خمسة أيام تلعب دوراً يجعلها التفكير فيه تصاب بالغثيان. وإذا ما كانت ليلة الزفاف سيئة، فالأيام التي تلتها كانت أشبه بالجحيم على الأرض. حضر جايك إلى منزلها يومياً، ولعب دور الخطيب المهتم والمخلص، فاضطرت إلى السير على خطاه في كل ما يفعله.

والأسوأ هو تعلّق أسرتها به. فجواكين وأليكس يعاملانه وكأنهما صديقاه منذ سنوات، وبديا على وفاق تام معه. حتى والدها الذي يتعامل عادة بطريقة رسمية مع الغرباء، بدا محباً على غير عادة ما زاد الدور الذي تلعبه... أو الكذبة التي اختلقتها... سوءاً.

لا يمكنها أن تفعل هذا! لن تفعل هذا!.

لكن هل لديها خيار آخر؟ منذ أن بقيت صامتة حين ادعى جايك أنه خطيبها، اضطرت إلى مجاراته وارتبط مصيرها به. عليها أن تمضي قدماً في هذا، سواء شاءت ذلك أم أبت. الأسابيع القليلة المقبلة بدت لها أشبه بعقوبة بالسجن، لا تعرف كيف ستمضيها.

لن تتحمل هذه العقوبة!.

عندما اتخذت قرارها هذا، استدارت مبتعدة عن النافذة وتوجهت إلى الخزانة لتخرج الملابس بشكل عشوائي.

لا يمكن لهذه المهزلة أن تستمر أكثر. لن تدعها تستمر! ستقابل جايك وتبلغه أنها ترفض الاستمرار في لعبته. ستطالبه بوضع حدّ لها، وسيجدان معاً مخرجاً من هذا المأزق.

وقف جايك قرب النافذة في غرفة الجلوس في شقة رامون، وقد نسي فنجان القهوة الذي حمله في يده فيما راح يحدّق إلى المدينة التي بدأت الحياة تدبّ فيها تدريجياً في نور الفجر البارد. بضع ساعات ويشتدّ الحر، وتصب الشمس أشعتها الساطعة على الشوارع المزدحمة. لكن السكون والهدوء يعمّان الآن، ولديه الوقت ليفكّر.

في مرسيدس!

موضوع واحد يشغل باله في هذه الأيام. شخص واحد لم يستطع أن يخرجه من تفكيره. شخص واحد لن يتمكّن يوماً من فهمه، مهما حاول ذلك.

في الواقع، يبدو أنه كلما حاول حشرها، كلما تخلّصت من قبضته ورفضت أن يتم تحديدها. كان الأمر أشبه بتشريح قوس قزح... فهي تنسلّ من بين الأصابع وتختفي. وكل ما يتبقّى له هو سلسلة من الصور الوهمية، غير المحددة، وغير الملموسة، المثيرة للسخط والجنون.

عندما اختلق قصة الخطوبة هذه، ظنّ أنه سيكسب فرصة ليتعرّف إليها... ليكتشف مرسيدس الحقيقية التي تختفي خلف الصور المتضاربة التي هاجمته منذ التقاها للمرة الأولى. لكن، وبدلاً من ذلك، بقيت محيّرة أكثر من أيّ وقت مضى.

إنها أشبه بألماسة متقنة القطع... لامعة، مشعّة، جميلة... إنما ذات أوجه متعددة بحيث أنّ كل طبع من طباعها يبهر عينيه، ويعميه عن النواحي الأخرى من شخصيتها.

لكنه لا يزال بعيداً عن معرفتها حق المعرفة.

صوت سيارة تنزل الشارع وتقترب لفت انتباهه للحظة.

إذن، هو ليس الوحيد المستيقظ في برشلونة في هذا الوقت المبكر؟ وتساءل لثوانٍ عن السبب الذي جعل الشخص الآخر يترك سريره قبل شروق الشمس؟ هل هم متوجهون إلى مكان ما، ليبدأوا نهارهم باكراً، أم أنهم عائدون لتوهم بعد ليلة طويلة في الخارج؟.

لوى فمه باستخفاف وهو يتذكر عدد المرات التي عاد فيها إلى المنزل في مثل هذا الوقت المبكر. يجب التمتع بالشباب، لطالما كانت هذه فلسفته. يجب أن يحيا المرء حياته... وقد عاشها بالطول والعرض.

وقد عرف الكثير من النساء أيضاً. نساء أردن المتعة نفسها التي سعى إليها، ولم يطالبنه يوماً بأيّ التزام. لم يسعَ أبداً إلى علاقة تدوم إلى الأبد..

أو حتى إلى غد مضمون. إذا لم تسر الأمور على خير ما يرام، فيتودّعان ويمضي كلّ منهما في سبيله. لطالما كانت علاقاته متحضّرة جداً.

إذن، لمَ لم يتخلَ عن مرسيدس ويبتعد عنها؟.

لم يستطِع ذلك؛ هذا هو الجواب البسيط والصادق. لم يستطع أن يتركها، وحتى لو فعل، لما كان قادراً أبداً على اقصائها عن ذهنه. أرادها أكثر مما أراد أيّ امرأة في العالم، ومراوغتها زادت من لهفته.

- تباً!.

أنزل جايك قبضته على حافة النافذة في حركة تعبّر عن مدى سخطه.

لم يتراجع يوماً ولم يستسلم في حياته. الشركة التي هزمته مؤسسة الكولار في مناقصتها هي الشيء الوحيد الذي لم يفلح في الحصول عليه عندما أراده. ولن يدع ألكولار آخر يهزمه مجدداً.

ربما لو بقيت مرسيدس تلك في لندن، لو استسلمت له، وعرفها بشكل حميم، لتمكّن من حلّ لغز تأثيرها فيه، ولأشبع الجوع المزعج الذي توقظه فيه. عندئذٍ، كان ليتابع حياته وينساها.

لكن، ولأنها اختفت بتلك الطريقة، تغلغلت في مسامه إلى حد أنه لا يظن أنه قد يتحرر منها يوماً حتى تستسلم له.

وماذا سيحصل عندما يصل إليها؟ ماذا بعد ذلك؟ حسناً، سينتظر حتى يرى إن كان الشعور سيماثل ما تصوّره. بعدئذٍ، سيجيب عن هذا السؤال.

إلاّ أنه لا يشك في أنها ستكون كما حلم بها في تلك الليالي الطويلة التي عانى فيها من الأرق والقلق والجوع، منذ أن هربت منه حينذاك. لقد دنا منها كثيراً إنما بقي بعيداً جداً في الوقت عينه... تذوّق ما يكفي من سحر وجودها ورفقتها وعناقها إلى حدّ أنه يعلم أنه لن يرتاح يوماً حتى يكتشفها كلها. حتى في أحلامه، لم تكن له كلياً. حلم بأنه أخذها بين ذراعيه، وعانقها عناقاً حميماً، وأحس بدفء ونعومة بشرتها تحت أنامله المتلهّفة..

- تباً!.

هذا هو حاله في هذا الأيام. يفكّر دوماً فيها... في مرسيدس. حتى

أنه أحس أنه قادر تقريباً على ارجاع رأسه إلى الخلف والعويل كالذئب في وجه القمر، في تعبير وحشي وبدائي عن لهفته.

- تباً وسحقاً... يجب أن ينتهي هذا!.

إما هذا وإما أن يفقد عقله كلياً.

اختفى صوت السيارة. يبدو أنّ ذاك الشخص الذي استيقظ باكراً قد وصل إلى وجهته، وهي في مكان قريب من هنا.

التفت إلى قهوته التي أضحت باردة وغير مغرية، ثم توجّه إلى المطبخ ليسكب فنجاناً آخر، لكن صوت جرس الباب جعله يتوقّف جامداً إذ باغته على حين غرة.

- من ذا الذي؟.

نظرة سريعة إلى الساعة أكدت له أن الوقت مبكر كما يظن فعلاً. لم يقف مستغرقاً في أفكاره طويلاً حيث أن الوقت مرّ بشكل أسرع مما توقع.

- ماذا...؟.

الطريقة التي فتح بها الباب عكست القلق الذي اعتمل في داخله. لم يكن يعلم ما إذا كان الزائر غير المتوقع جاء لرؤيته هو أم لرؤية رامون، صاحب الشقة التي يشغلها مؤقتاً. كل ما يعلمه هو أنّ زائراً في مثل هذه الساعة المبكرة يعني أخباراً من نوع ما، وهي أخبار غير سارة عادة.

- أنت!.

خرجت هذه الكلمة كالصاعقة من فمه، حين رأى المرأة الطويلة، الرشيقة، ذات الشعر الأسود التي وقفت في الباب. مرسيدس ألكولار... إنما مرسيدس كما لم يرها قط من قبل.

بدا جلياً أنها، وعلى غراره، ارتدت الملابس التي وصلت إليها يدها، وهي عبارة عن بنطلون جينز قديم وقميص واسع، يتناقضان مع الملابس الأنيقة، المختارة من أشهر دور الأزياء، والتي اعتاد على رؤيتها فيها. هذا الأمر جعله يرمش بعينيه لثانية أو اثنتين في ما يقارب عدم التصديق. أحاط شعرها بوجهها، فبدا وكأنها بالكاد تمكّنت من تمرير فرشاة فيه قبل أن تغادر المنزل.

إلا أنّ وجهها بدا مختلفاً للغاية بحيث أنه بالكاد عرفها. لم تكن تضع أيّ زينة ما أبرز سحنتها الذهبية بنعومتها ورقتها اللتين لا يمكن لأيّ مسحوق تجميل أن يضفيهما على بشرة. أما العينان الداكنتان فلا تزالان مغشيتين بالنعاس... أم لعله الأرق إذ ظهرت بعض الظلال تحتهما... والأهداب السوداء الطويلة لم تكن بحاجة إلى أيّ شيء اصطناعي لتعزيز جاذبيتها المغرية. بدت أصغر من سنها بعشر سنوات... أشبه بطفلة... وبريئة إلى حدّ لا يصدّق.

- ماذا تفعلين هنا بحق الجحيم؟.

لم يأبه كم يبدو عدائياً، فقد فاجأته زيارتها وأخذته على حين غرة بحيث تناسى اللياقات الاجتماعية.

- علينا أن نتحدّث.

لا ليس علينا...

خطرت له هذه الفكرة قبل أن يتمكّن من السيطرة على نفسه. وتحركت حواسه كلها على الفور في ردّ فعل على ظهورها فيما بالكاد أنهى معركته لكبت مخيّلته الجامحة التي عذّبته منذ لحظات.

لا، ليس علينا أن نتحدّث. ما علينا أن نفعله هو أن نتعانق وما عليك أن تفعليه هو أن ترتمي بين ذراعيّ وتدعيني أعانقك و...

تباً، لا!.

لا!.

عليه ألاّ يدع أفكاره تأخذ هذا المنحى.

إلاّ إذا دفعتها معجزة ما إلى الحضور لتقول له إنها تشاطره الشعور نفسه... وإنها حاولت إنما لم تستطع أن تحتمل البعد عنه أكثر...

- جايك، هل سمعت ما قلته؟ علينا...

- نعم، نعم... علينا أن نتحدّث.

خاض معركة ضد ذاته، لكنه تمكّن بطريقة ما من جمع أفكاره المشتتة وحاول أن ينظّمها... ينظّمها بشكل محترم.

لم تأتِ بالطبع إلى هنا لتقول إنها تبادله الشعور نفسه. لقد أوضحت له أنها تكرهه، وأنها تعتبره أدنى من الأرض تحت قدميها الصغيرتين.

لمَ أتت إذن؟.

- عمّا ستتحدث؟.

التفتت عينا مرسيدس الداكنتان يمنة ثم يسرى، ثم ألقت نظرة إلى خارج الشقة، وعندما عادت تنظر إليه مجدداً كانت نيران اللوم الغاضب تستعر في أعماق عينيها.

- هل تظن أني أريد التحدّث هنا... في العلن...؟.

- حسناً، إذا أردت أن يكون الحديث خاصاً... فتفضّلي.

فتح جايك الباب قدر استطاعته ووقف بعيداً لئلا تقترب منه وهي تدخل إلى الغرفة. فمجرد الربط بين كلمة خاص وبين التواجد مع مرسيدس وحديهما أشعل النار في دمه وجعله يتدفّق بقوة في شرايينه بحيث عجز عن السيطرة عليه. إن كانت سريعة التأثر بقدره، فهو ليس مسؤولاً عن نتائج لقائهما.

أردف وهو يغلق الباب بحزم ويستند إليه شابكاً ذراعيه على صدره، ومحدقاً إلى وجهها: «إذن، ما الذي تريدين التحدّث عنه تحديداً؟».

- أنا... أنا..

تلعثمت ولم تعد تجد كلماتها فعضّت على شفتها السفلى ذعراً.

- أنت؟.

حثّها جايك على الكلام بفظاظة حين بدا له أنها ستستسلم كلياً، بعد أن فقدت قدرتها على ايجاد ما تقوله.

وأردف: «قلت إنك تريدين التحدّث... فتحدّثي إذن».

بدت وكأنها تفضّل مواجهة فصيلة اعدام على الكلام. لكنها ابتلعت ريقها بصعوبة وأجبرت نفسها على الرد.

- أردت أن أحاول لأرى إن كان بإمكاننا التوصّل إلى تسوية ما؟.

- أحقاً؟ وما هو نوع التسوية الذي خطر لك؟.

١٠ - أمر أم طلب

أردت أن أحاول لأرى إن كان بإمكاننا التوصّل إلى تسوية ما.

يا إلهي، لمَ قالت هذا؟.

لم يكن هذا ما قررت قوله. في الواقع، هذا آخر ما فكرت مرسيدس في قوله! لكن، وبطريقة ما، وبغباء عارم، ومن دون أن تعرف السبب، تكلمت من دون تفكير.

لم تشأ التوصّل إلى أيّ تسوية من أيّ نوع. ليس مع جايك... ومهما كانت الظروف! لقد حضرت هذا الصباح لتخبره أنّ القصة السخيفة التي اختلقاها انتهت، وأنها لن تستمر في هذه الخدعة بعد اليوم. يجب أن تتوقف على الفور... وبشكل نهائي.

أتت إلى شقته لتنذره: أوقف هذه المسرحية السخيفة... وإلا!.

كانت مصممة تماماً على القرار الذي اتخذته. وهذا القرار جعلها تخرج من منزلها وتقود سيارتها وتتوجه إلى هنا... إلى هنا مباشرة، من دون تحويل أو تأخير. حتى أنها رددت خطابها مراراً وتكراراً وهي تستخدم المصعد في طريقها إلى الشقة.

إنما، ما إن فُتح الباب ورأت جايك يقف أمامها حتى تبخّر تصميمها كله... ومعه تلك الكلمات التي رددتها وتدربت عليها بعناية.

- أنا... آه...

أنّى لها أن تفكّر بشكل قويم فيما هذا الرجل يقف قبالتها شبه عارٍ؟ بنطلون الجينز هو الشيء الوحيد الذي يرتديه ويعلوه الصدر الواسع، حيث الشعر الداكن المجعد يشكّل إلهاءً خطيراً ويسبب إرباكاً عظيماً.

حاولت أن تكتفي بالنظر إلى وجهه، إلاّ أنها فشلت. فعيناها ما انفكّتا تتحولان إلى كتفيه العريضتين، المستقيمتين، وإلى عضلات ذراعيه القوية.

- أيّ نوع من التسويات؟.

- تسوية من شأنها... ألا تظن أنّ من الأفضل أن ترتدي بعض الملابس؟.

ألقى جايك نظرة سريعة عابسة على صدره العاري ثم رفع ناظريه إلى عينيها الداكنتين في نظرة تحدٍ باردة.

- لا. لماذا؟.

- حسناً... أنت... أنت بالكاد ترتدي ما يكفي لكي... لكي أفعل ما في ذهني.

لِمَ قالت هذا؟ لقد أعطته فرصة ممتازة... فرصة استغلّها من دون تردد.

- وما الذي في ذهنك؟.

- قلت لك! علينا أن نتكلم!.

لكن، بعد أن زرع الشك في أفكارها، لم تعد قادرة على كبح مشاعرها وإبعادها عن الصور التي راح ذهنها يستعرضها مرة بعد مرة.

- نعم... لقد قلت هذا أكثر من مرة... لكنك لم تذكري الموضوع. ولا تقولي لي مجدداً إنّ عليّ أن أرتدي بعض الملابس... فأنا محتشم بما يكفي لنتكلّم.

تشديده على كلمته الأخيرة أوضح جلياً أنه يشك في أنها حضرت إلى منزله لتتحدّث إليه. فكرة التفسيرات الأخرى التي يمكن أن يعطيها لزيارتها جعلت قلبها ينتفض ونبضاته تتسارع بشكل مؤلم وغير سويّ.

- أنت محظوظة لأني أرتدي هذا القدر من الملابس. إذا اخترت أن تدقّي على أبواب الناس في مثل هذه الساعة المبكرة، ساعة يكون الناس فيه عادة نيام، فعليك أن تتقبّليهم كما تجدينهم. وأنا لا أملك بيجاما و...

- آه، هل أيقظتك من النوم؟.

كانت مصممة جداً على رؤيته، وفي حاجة ماسة لرؤيته، بحيث أنه لم يخطر لها حتى أنه قد يكون نائماً أو...

- لا، لم أكن نائماً... وقبل أن تطرحي السؤال الثاني الذي يطنّ حالياً في مخيّلتك الصغيرة الخصبة، لا، لم أكن مع امرأة أخرى. ما من أحد في الشقة سوى أنا وأنت.

يجب ألاّ تشعر بالارتياح. ما من داعي لذلك. فجايك تافرنر لا يعني لها شيئاً... أبداً! لكن هذا لم يمنع كتفيها من الاسترخاء، أو أنفاسها التي حبستها من الخروج من بين شفتيها، ما جعلها تدرك بعد فوات الأوان كم أنّ فكرة السؤال الذي لم تطرحه وتّرت جسدها كله... وكأنّ الجواب عليه لم يعنِ لها شيئاً... بل كل شيء.

أصابها الارتياح بدوار وجعلها طائشة فلم تستطع أن تكبح ضحكتها.

- هل تدرك أنك تتمسك بفنجان القهوة هذا وكأنه درع واقٍ منذ دخلت؟ حتى عندما مددت ذراعيك، بقيت متمسكاً به.

باغته التغيّر المفاجيء في صوتها، فأخفض جايك ناظريه إلى الفنجان بذهول.

إنها محقة. لقد نسي الفنجان كلياً منذ تردد صوت جرس الباب في الشقة، وبقي متمسكاً به منذ تلك اللحظة.

إنما كدرع واقٍ؟.

هذا يعني أنه لا يريدها أن تقترب منه فيما هو يرغب في العكس تماماً. ما يريده هو أن تقترب منه قدر الإمكان.

لعله استخدم الفنجان كحاجز دفاع ضد أفكاره ومشاعره الخاصة. فوجود الفنجان في يده، لا يمكنه أن يقوم بما يرغب فيه بشدة...

- هل ستشرب ما فيه؟.

سحقاً. ما الذي قالته؟ تكلّمت عن الشرب.

- أظن أنه غير قابل للشرب على الأرجح.

نظرة أخرى إلى السائل البني الذي لم يعد مغرياً وشهياً جعلته يكشر

بقرف.

- إنه مقزز للغاية. أرجو المعذرة، سأتخلص منه سريعاً. وقد أحضر فنجاناً آخر... أترغبين في بعض القهوة؟.

- هذا لطف منك.

والتفت بشكل آلي نحو باب المطبخ، فتساءل إذا ما كانت تتذكر، على غراره، تلك الليلة في منزله حين دخلت إلى المطبخ لتنضم إليه وهو يشرف على التحضيرات الأخيرة لوجبة العشاء.

لم يشأ أن يتكرر ذلك الآن.

- اذهبي واجلسي.

وأشار بيده إلى غرفة الجلوس من دون أن يتوقف ليرى ما إذا التزمت باقتراحه، ثم دخل إلى المطبخ ورمى محتويات فنجانه الباردة وغير المغرية في الحوض قبل أن يجبر نفسه على التركيز على تحضير فنجاني قهوة جديدين.

ينبغي ألاّ يكون لها هذا التأثير فيه، فهو في المطبخ بحق الله. مطبخ حديث، مصنوع من المعدن اللامع والرخام مع إضاءة مدروسة بعناية. غرفة عملية... وهي على الأرجح صارمة وعملانية. في حين أنّ أفكاره مالت نحو الغواية والرفاهية والنعومة والتراخي، بعد أن سيطرت مخيّلته على مجراها.

بالله عليك يا رجل! تمالك نفسك!.

غمغم جايك بذلك بغضب بعد أن قاطع صوت المياه التي راحت تغلي في الإبريق، أفكاره. رفع غطاء الإبريق وأصبح الآن معرّضاً لخطر الاحتراق.

- تمالك أعصابك.

- ماذا؟ هل قلت شيئاً؟.

- لا!.

فات الأوان. فقد ظهرت أمامه في باب المطبخ.

- هل تحتاج لأيّ مساعدة؟.

- قلت لك أن تجلسي.

تصرّف خاطىء، نبرة خاطئة. أمكنه أن يرى العصيان يرتسم على وجهها والغضب يلمع في عينيها.

- ومن أعطاك الحق في إصدار الأوامر لي؟ أنا لا أتلقّى الأوامر!.

- نعم، لاحظت ذلك.

وأخذ نفساً عميقاً، غير سوي، علّه يسيطر على مزاجه العكر.

- ماذا عن الطلبات؟.

- ماذا؟.

ابتسامتها كانت مرتبكة، مذهولة وخجولة بعض الشيء، وفاتنة بشكل جهنميّ.

إنه يريد رؤية هذه الابتسامة مجدداً، وهذا أمر مؤكّد.

- قلت إنك لا تتلقين الأوامر... فهل تتقبلين الطلبات؟.

بدا جلياً أنها مأسورة الآن.

- ربما أفعل.

- حسناً، إذن... مرسيدس، اذهبي واجلسي، أرجوك.

ونجح الأمر، فعادت تلك الابتسامة ترتسم على وجهها. ابتسامة واسعة ومشرقة أكثر من ذي قبل. واسعة بما يكفي لتسدد له ضربة مؤلمة وحادة.

- بما أنك طلبت ذلك بلطف فائق...

استدارت، تستعد لتنفيذ ما طلبه منها، حين شعر برعشة قوية تتملكه ما جعله يجفل في داخله.

- لا! أعني... لقد بدّلت رأيي!.

هذه المرة، لم تتكلم بل سددت نظرة استفهام إلى عينيه مباشرة.

هل هي نظرة استفهام فعلاً؟ هل من لمسة تحدٍ فيها أيضاً؟.

قال بصوت أجشّ: «لا تذهبي، تعالي. أرجوك، ادخلي».

وللحظة أو اثنتين، ظن أنها سترفض، لكنها ابتسمت مجدداً، يبطء

أكبر هذه المرة وعادت.

بدا وكأن كل خطوة منها استلزمت قرناً. سارت متعمدة نحوه، وعيناها مسمرتان على عينيه.

أغاظته قائلة: «أترى كم تصبح الأمور سهلة عندما تطلب بلطف».

كانت تقترب منه. أصبحت من القرب بحيث تمكّن من أن يشعر بدفء جسدها يمتد ليلامسه، وعطر بشرتها الخاص يحيط به كغمامة. الشوق إليها كان أشبه بحاجة تمزّقه، تتعاظم، وتشتد مطالبة بإطلاق العنان لها.

- أنا آسف... نسيت أصول اللياقة.

بذل جهداً جباراً لئلا يعكس صوته ذاك الشعور الذي يتملّكه، وتابع يقول: «لن يتكرر هذا مجدداً».

تباً، لقد توقّفت في مكان جعلها بعيدة عن متناول يده. بقيت بعيدة عنه بحيث بات من المستحيل أن يلمسها من دون أن تراه يتقدّم نحوها ما يعطيها فرصة للانسحاب والتراجع سريعاً. وإذا ما تحركت بعيداً، فهو يشك في أن تقترب منه مجدداً.

إنما، هناك الكلمة السحرية بالطبع.

- أرجوك...

وأرفقها بإيماءة حذرة من إصبعه. حذرة وبطيئة، من دون أيّ حركة مفاجئة من شأنها أن تجعلها تجفل كظبية تخشى أن تقع في الفخ. بدت عيناها واسعتين وداكنتين كذاك المخلوق البري، فيما بقي رأسها عالياً وحركاتها حذرة.

إلاّ أنها اقتربت منه، خطوة أخرى إلى الأمام.

بحذر، بنعومة...

ومدّ ذراعيه ليحتضنها...

لم تصدّق مرسيدس أنها تفعل هذا. لا ينبغي لها أن تفعل لكنها تعلم أيضاً أنها عاجزة عن المقاومة. فالأمر أشبه بالوقوع تحت سحر مشعوذ؛ كما لو أنّ خيوط السحر الدقيقة حيكت فوق رأسها ومن حولها كطوق هشّ

إنما غير قابل للكسر.

وأدركت في أعماقها أنها لا ترغب في التحرر والإفلات من هذا السحر.

لم تشأ أن تقاومه.

عندما يبتسم جايك بهذه الطريقة، يسحرها ويصل إلى روحها، حيث تمركز منذ بداية لقائهما، وهي تدرك ذلك تماماً مهما حاولت جاهدة أن تقنع نفسها بالعكس. وكلمة «أرجوك...» التي همسها قضت على أيّ أمل لديها في أن تتمكّن من مواجهته بثبات.

لعله كان بمقدورها أن تقف في وجه جايك نفسه... لكنها لم تستطع أن تصمد في وجه المزيج المهلك من سحر جايك المقنع ومن شوقها الملّح.

وهكذا، تقدّمت كشخص خاضع لتنويم مغنطيسي.

الدقيقة التي مضت قبل أن تطبق ذراعاه عليها استمرت دهراً. شعرت وكأن قلبها توقف عن الخفقان فيما انحبست أنفاسها في حلقها. أحست وكأن تلك الثواني القليلة لم تكن يوماً أطول... ولا تحتمل بقدر ما هي اليوم.

بدا وكأن الأحداث كلها تجري ببطء شديد.

وعندما عانقها أخيراً، انفجرت حواسها وذهبت بأفكارها معها. كل ما كانت تعيه هو نار المشاعرالبدائية، المستعرة التي بدأت تتأجج في داخلها وتنتشر في جسدها كما تنتشر في الهشيم.

www.dr-romancia.com

١١ - امرأة لعوب

إنها تلك الليلة في لندن من جديد.

لكن مرسيدس كانت تتوقع هذه المرّة ما يجري.

لم تعد غير واثقة أو خائفة. لن ترتجف حتى أعماق روحها الدفينة، كما فعلت تلك الليلة، لأنها تعرف الآن ما سيحدث. كانت تنتظر تلك الصاعقة، تلك الحرارة التي تكتسح كل عصب فيها.

- ج... جاك...

حتى اسمه ارتجف على لسانها وهي تحاول النطق به. كما بدت ذراعاها غير واثقتين وهي ترفعهما لتضعهما حول عنقه. لكن، وبفضل دعمهما، تمكّنت من البقاء واقفة على قدميها لتبادله العناق وتستسلم لعناقه كلياً كما طالبها ضغط ذراعيه.

العناق الذي بدأ خشناً ومتطلباً ومتشوقاً، استحال الآن أعمق وأكثر تعذيباً. وانحبست أنفاس مرسيدس في حلقها فيما راح جسدها ينتظر وينتظر.

صدرت عنها تنهيدة حارة وكأنها خرجت من أعماق روحها، فضحك جايك ضحكة جاءت ناعمة، ودافئة على خدّها.

اكتفت مرسيدس بهزّ رأسها ارتباكاً، عاجزة عن ايجاد كلمات مناسبة للإجابة، وهي تحاول أن تكتشف ماهية المشاعر التي تعتمل في داخلها.

رأت النظرة المصممة على وجهه، ولاحظت كيف استحال لون عينيه داكناً وهو يتأمل ملامحها، فأدركت ما هو آتٍ. هل هي مستعدة حقاً؟ هل هذا ما تريده فعلاً؟ هل هذا هو الخيار الأمثل؟.

حبست مرسيدس أنفاسها فيما انقبضت معدتها بحدة، خوفاً وارتباكاً. وتراكمت الصور في ذهنها، وراحت تتوالى الواحدة تلو الأخرى: صورة والدتها الحبيبة وهي توصيها وتجعلها تعدها، صورة أبيها الغاضب، الثائر، وصورة استريللا، زوجة أخيها التي نبذها مجتمعهم بسبب تهوّرها... صور وصور عذّبتها وجعلتها تدرك ما تقدم عليه.

لكن جايك كان في عالم آخر، لا فكرة لديه عما يدور في ذهنها، كان غارقاً في عالم الأحاسيس التي جرّته إليه. اعترضت وإن بضعف: «جايك! أنا... أنا...».

همس: «ما الأمر؟».

- أنا... حسناً، أنا...

- مرسيدس، عزيزتي، ما بك؟ أنت ماذا؟.

- جايك، أرجوك! لا ما نفعله خطأ! هذا ليس صواباً.

وكأنما هذا الاعتراض كان كافياً ليستعيد جايك وعيه، فابتعد عنها بسرعة وكأنها أفعى تهدد بأن تلسعه.

- تباً يا مرسيدس. أتهوين التلاعب بي؟ أتجدين لذة في إفقادي السيطرة على نفسي لتتراجعي في آخر لحظة؟ أتسعين إلى إحباطي؟.

لم تتكلم ولم تجبه إذ لم تستطع أن تجد الكلمات المناسبة للرد عليه. لاذت بالصمت فيما غشت الدموع عينيها واعتصر الألم قلبها.

مرر جايك يده في شعره، وراح يحدّق إلى الفراغ محاولاً أن يجد أجوبة على الأسئلة التي تزاحمت في ذهنه.

من هي هذه المرأة؟ وما هي حقيقتها؟ إنها مرسيدس... مرسيدس المحبوبة، العزيزة، المدللة، ابنة أسرة ألكولار الوحيدة.

إنها ابنة خوان ألكولار.

لم يثق بنفسه ليتحدّث إليها إذا ما اضطر لذلك الآن.

لكن من هي مرسيدس ألكولار فعلاً؟.

هل هي المرأة اللعوب التي خرجت معه وأثارته إلى حدّ الجنون ثم فرّت

من شقته وتخلّت عنه؟.

هل هي المرأة التي جارته الآن وأفقدته صوابه ثم تراجعت في اللحظة الأخيرة بعد أن أوقدت النار في جسده؟.

أم أنها فرّت خوفاً من عائلتها ومجتمعها، ومن ردّ فعلهما إذا ما اكتشفا تورطها معه؟ أم لعلها خافت من التجربة في حدّ ذاتها لعدم خبرتها؟.

لكن ثمة مرسيدس ألكولار أخرى. . . امرأة مختلفة تماماً. . . تلك التي التقاها في حفل زفاف رامون، حيث ادّعت أنها لا تعرفه أبداً. تلك التي تجاهلته وبقيت متعلقة بذراع ذاك الشاب لئلا تتسنى له فرصة الاقتراب منها. تلك التي يجري في عروقها دم ألكولار الصافي من قمة رأسها الأسود اللامع حتى أخمص قدميها الصغيرتين، الناعمتين. امرأة باردة كقطعة من جليد، لا تأبه أبداً بمشاعر الآخرين، ومتعجرفة، متغطرسة إلى أقصى حدّ.

تلك كانت مرسيدس التي أعدّت الرسالة التي أبلغته بها صديقتها عندما حاول التحدّث إليها في لندن.

«مرسيدس لا ترغب في أن تضيّع مزيداً من وقتها معك».

إذن، إذا لم تشأ أن تضيّع وقتها معه، فماذا تفعل هنا، وماذا كانت تفعل منذ دقائق بين ذراعيه؟.

ثمة أمر واحد مؤكد. . . وهو أنّ الوقت الذي يمضيه معها ليس وقتاً يضيع سدى. فمعها اختبر مشاعر لم يعهدها من قبل، مشاعر بلغت أقصى حدود التطرّف. فهو يريدها إلى حدّ الألم ويكره تأثيرها فيه إلى حدّ الرغبة في قتلها.

أما الآن فعليه أن يجد حلاً لهذا الوضع الشاذ، عليه أن يتصرف بعقلانية ويبتعد عن التهوّر. فقد تأخر الوقت، وأصبحت الشمس في كبد السماء، والطقس ينذر بيوم حار. وصلت مرسيدس إلى شقته في وقت مبكر جداً بحيث أنه يشك في أن تكون قد أعلمت والدها بخروجها. وإذا ما تأخرت في العودة، فسيتوجب عليها أن تقدّم تفسيرات كثيرة عند وصولها إلى المنزل. ربما لن يصدّقها والدها إذا ما قالت إنها غادرت المنزل في

الصباح، وقد يتهمه بإغوائها لتمضي الليلة عنده.

كما أنه لم ينسَ شقيقيها حين قبضا عليه ليلة زفاف رامون، فقد بديا قادرين على إلحاق الأذى به إذا ما أساء إلى أختهما الصغيرة العزيزة.

وعند هذه النقطة، رفع نظره إليها وتأمل رأسها المحني قبل أن يقول:

«مرسيدس. . . علينا أن نتكلم».

- عمّ سنتكلم؟.

- قلت إنك جئت إلى هنا لنتحدّث. . . لنرى إن كان بالإمكان أن نتوصّل إلى تسوية. فما هو نوع التسوية التي كنت تفكرين فيها؟.

ما هو نوع التسوية؟.

ذكرى الأفكار التي شغلت ذهنها وهي في طريقها إلى هنا، طافت في رأسها بشكل عشوائي. حينذاك، كانت واثقة تماماً من مشاعرها ومما تريده وما ستقوله له. وتذكرت أنها راحت تكرر الجمل مرة بعد مرة وهي تصعد السلالم لتصل إلى باب المبنى حيث تقع الشقة، وهي تقطع الممر لتصل إلى المصعد. إلاّ أنّ هذه الأفكار تشتتت الآن واختفت، ولم يعد يطفو منها سوى مقتطفات تظهر ثم تعود وتختفي مجدداً قبل أن تتمكّن من الإمساك بها وتحويلها إلى جملة مفيدة ومترابطة. لم تجد في داخلها القوة الكافية لتشكيل جملة والجمع فكرتين منطقيتين معاً.

وما زاد الوضع سوءً هو الضعف الذي أحسّت به وهي تقف قبالته بعد أن كانت في النعيم بين ذراعيه. ها هي تقف هنا، غارقة في تبعات عناقهما، تتخبط لتتمالك نفسها وتستعيد رباطة جأشها، في حين أنه يفكر ببرودة في ما قالته ساعة وصلت، متذكراً التسوية التي تحدّثت عنها، ومستعداً الآن لمناقشتها بمنطق وعقلانية. بدا وكأنهما لم يتعانقا أبداً، ولم يلهب مشاعرها، ولم يفقدها صوابها. أحقاً، كانت بين ذراعيه منذ لحظات؟ أحقاً، كادت تنسى وعدها لوالدتها؟.

بدا أنّ ما حصل لم يؤثر فيه ولم يقضِ على لامبالاته. كيف أمكنه أن يتصرف بهذه البرودة وهذه العقلانية، في حين أنها وقعت في حبه من دون أن

تدري متى أو كيف أو لماذا؟

وفي خضم انفعالها، كادت مشاعرها الملتهبة تدفعها إلى البوح بسرّها.

كادت تقول له: «جايك تافرنر، أنت الرجل الذي أحب، أنت حياتي وقلبي وروحي. أنت كل ما حلمت به وأردته يوماً». لكنها تمكنت من ردّ الكلمات الخائنة قبل أن تخرج من بين شفتيها... وفي الوقت المناسب.

نظرة عينيه الباردتين راحت تتأملها بإمعان، ما جعلها ترغب في الابتعاد عنه والاشاحة بنظرها. لكنها عرفت كيف سيفسّر تصرّفها هذا على أنه اعتراف بضعفها أمامه فأجبرت نفسها على أن تلزم مكانها، متحملة تحديقه إليها رغماً عنها.

إنها مرسيدس ألكولار، ابنة خوان الكولار، ولا ينبغي لها أن تذل نفسها وتظهر ضعفها.

- حسناً، ربما بإمكانك أن تناقش الأمور فيما أنت شبه عارٍ... إنما أخشى أني أفضّل أن ترتدي ثيابك.

وسمحت لنفسها أن تضيف هزّة خفيفة، معبّرة من كتفها، هزّة مصطنعة كلياً، جاءت من حاجة لديها للدفاع عن نفسها ولإعلامه أنه ليس الوحيد الذي يمكنه أن يتصرّف ببرود وتباعد.

- حسناً، لن أغيب طويلاً. اعتبري البيت بيتك، وتصرّفي على هواك.

- لا تقلق، ففي النهاية هذه الشقة شقة أخي، وأنت ضيف فيها أكثر مني.

كلامها هذا ألزمه حدوده وأسكته. نعم، إنها تنتمي إلى هذا المكان أكثر منه. إنها من أسرة ألكولار العريقة في حين أنه شخص غريب نكرة في هذه البلاد.

لقد أتى إلى هنا، ولحق بها إلى بلادها، مصمماً على أن يضع العداء القديم خلف ظهره... وأن يترك الماضي للماضي حيث مكانه. لكن، ومع كل تصرّف تتصرّفه، ومع كل كلمة تنطق بها، تبدو مرسيدس مصممة على

أن تثبت أنّ غطرسة أسرة ألكولار حيّة فيها ومستعدة للظهور عند أول فرصة.

حسناً، إذا أرادت أن تلعب اللعبة بهذه الطريقة، فسيجاريها خطوة بخطوة.

www.elromancia.com

١٢ - الآن أو أبداً

وبعد نصف ساعة، خطر لجايك أنّ اتخاذ القرار بمجاراة مرسيدس والتصرّف على طريقتها، طريقة أسرة ألكولار، شيء، وإجبار نفسه على الالتزام فعلياً بهذا القرار شيء آخر.

ففي الواقع، عاد إلى الغرفة ليجد مرسيدس غارقة في الأريكة وقد بدت مختلفة تماماً حتى خيّل له للوهلة الأولى أنها شخص آخر.

كان شعرها الأسود اللامع ينسدل على كتفيها، ووجهها البيضاوي الشكل مصطبغاً بلون زهري طبيعي، فبدت وكأنها طفل صغير يداعب النعاس جفنيه. جلست متقوقعة على نفسها في الأريكة الكبيرة، ويداها معقودتان حول ركبتيها، ما زاد انطباعه بأنها فتاة صغيرة ضائعة.

لكن، عندما نظر إلى وجهها ورأى النظرة العاصفة، والمتمردة في عينيه، وملامحها العنيدة والمتعجرفة، وذقنها المرفوعة بتحدٍ وفمها غير الباسم، رأى مرسيدس الأخرى... تلك القادرة على رمقه بنظرة تحيل الرجال الأقل صلابة منه إلى كومة رماد عند قدميها، وتخضعهم برمشة عين.

أما اليوم فثمة شيء مختلف حتى في ذاك التعبير... ذاك الذي أطلق عليه اسم نظرة ألكولار. فالتحدي اليوم يتضمن لمسة من التظاهر بالشجاعة لم يلاحظها من قبل. فالذقن الناعمة عالية بعض الشيء، والفم المطبق تحوّل إلى خط من العصبية بدلاً من أن يعكس الكبرياء، ما جعلها تبدو كمن يخوض حرباً ضد نفسه... ويصرّ على عدم إظهار القلق والاضطراب اللذين يشعر بهما.

وبعد أن لاحظ ذلك، وبعد أن اكتشف مدى براءتها، كبح الملاحظة اللاذعة التي كادت تفلت منه، وبدلاً من ذلك استخدم نبرة طبيعية إلى حدّ ما وهو يقول: «لقد بدّلت ملابسي. فهل أنت راضية؟».

لم تجبه على الفور، بل تأملت بنطلون الجينز الذي ارتداه، والقميص الأبيض النظيف الذي وضعه فوقه.

- هل أنت جاهزة للتحدّث الآن؟.

وأردف بعد أن لاحظ أنها أجفلت لحدّة لهجته: «هل تجدينني محترماً بما يكفي لمناقشة الأمور؟».

- نعم، لا بأس.

عادت اللهجة الرسمية الجافة، وكأنها تسعى لوضع بعض المسافة بينهما.

- هل أنت واثقة؟ أم أنّ عليّ أن أغطي ما ظهر من جسمي... قدماي ربما؟ هل عليّ أن ألبس جوارب أيضاً؟.

- لا تكن سخيفاً! ما من داعٍ لذلك!.

- لا؟ ألا تخشين أن تشعري بالاغراء؟

- هذا ليس ما خطر في بالي!.

النظرة الفارغة المذهولة التي رمقته بها كانت أبلغ من الكلمات.

- أحقاً؟.

- بالطبع لا! أردت... أردت التحدّث إليك وحسب.

أنهت كلماتها على نحو مفاجيء ثم عدّلت جلستها في الأريكة لتبدو واثقة في نفسها قبل أن تردف: «فلنتحدث إذن. دعنا نقول ما لدينا»

بعدئذٍ، يمكنني أن أعود إلى منزلي.

لم تقل هذه الجملة الأخيرة. لم تكن مضطرة لذلك، فقد قرأها في وجهها. لكنها رأت مثله تماماً أنّ التعقّل هو أفضل جزء في الشجاعة، فصممت على الالتزام بالمواضيع الأقل إثارة للنزاع، والابتعاد عن تلك التي قد تسبب المشاكل.

www.elromance.com

- الأمر يتعلق أكثر بما أردتِ أنتِ قوله...

وشرح لها عندما ظهر الارتباك عليها: «جئت إلى هنا لمناقشة تسوية ما. هذا على الأقل السبب الذي عللت به زيارتك».

ردّت مرسيدس بحدّة: «حسناً، لم آتِ إلى الشقة لأرتمي في أحضانك وحسب! ما من شيء كان أبعد عن ذهني من هذا!».

كيف أمكنه أن يفعل هذا؟ طرحت هذا السؤال على نفسها فيما اكتفى هو بالنظر إليها من دون أن ينطق بكلمة واحدة. كيف أمكنه أن يعكس الشك والارتياب وعدم التصديق الصريح في نظرة واحدة من تينك العينين الباردتين والمثيرتين للاضطراب، بحيث أحست وكأنها أصغر من حشرة تزحف على الأرض... وغير مهمة بقدرها بحيث أنّ من السهل سحقها تحت الأقدام.

همس: «حسناً، إذا شئت ذلك».

وكانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير. فمنذ أن وصلت إلى الشقة، لم يسر أيّ من الأمور كما خططت له. وكيفما دارت، تجد هذا الرجل في المرصاد، ينتظرها على أقل غلطة، يعيق طريقها، ويطيح بكل خطة تضعها، ويأخذ كل تصرّف تقدم عليه فيحرّف دوافعها بطريقة مخيفة. منذ التقت جايك تافرنر في تلك الحفلة اللعينة في لندن، لم تعد حياتها حياتها وهي تريد استعادتها بشكل يائس.

صرخت به: «لقد اكتفيت! طفح بي الكيل! لست مضطرة للبقاء هنا والاستماع إلى هذا... سأعود إلى منزلي!».

وهبّت واقفة على قدميها، واتجهت نحو الباب حين تناهى إليها صوته بارداً، جافاً ما جعلها تقف بشكل مفاجىء وحاد.

- أتهربين مجدداً يا آنسة ألكولار؟

طرح جايك سؤاله هذا بهدوء، إنما بنبرة لا تخلو من التهكّم الذي لسعها كسوط قاسٍ.

وأردف يقول: «متى ستبقين وتواجهي...؟».

- لست هاربة!.

واستدارت مرسيدس لتواجهه، وحدّقت بغضب إلى وجهه الهادىء والساكن بشكل يثير الأعصاب. فوق خط فمه العنيد، بدت العينان الزرقاوان حذرتين ويقظتين، تسجلان كل انفعال يرتسم على وجهها، وكل تغيّر بسيط في تعابيرها، بحيث شعرت وكأنّ الحشرة التي حوّلها إليها تتعرض الآن للتشريح والدراسة تحت المجهر بشكل مجرد وتحليلي.

كررت وهي تشدد على كل كلمة تلفظها: «أنا لا أهرب. وليس مجدداً بالتأكيد».

- لا؟ ماذا عن تلك الليلة في لندن إذن؟ فقد فررت بقدر ما استطعت من السرعة، من دون حتى أن تودّعيني.

وفجأة، تغيّرت تعابير وجهه بشكل محيّر. فأضحى لون عينيه داكناً، وارتخى خط فمه المستقيم ثم رأته يحرّك جسده الطويل من حيث كان جالساً ليقف على قدميه.

- مرسيدس... كان عليك أن تعلميني. إذا كان عدم خبرتك وخوفك على سمعتك وردّ فعل أهلك ما أخافك...

- نعم، طبعاً... كنت لتتوقف وتقول، لا بأس يا عزيزتي، يمكنني...

- ربما كنت لأفعل ذلك!.

خرجت كلماته كزئير أسد، زئير ذكر مسيطر، تلقى ضربة في مكان يؤلمه للغاية... في كبريائه.

- كنت لأفعل ذلك حقاً... إذا ما أتحت لي الفرصة!.

وراح يتقدّم منها والغضب مرتسم على وجهه، غضب رسم خطوطاً بيضاء حول أنفه وفمه وجعل حنكه صلباً كالصخر.

- وهل تركت لي أيّ فرصة، يا آنسة ألكولار؟ حسناً، هل فعلت؟.

- ل... لا.

أجبرت مرسيدس نفسها على التماسك والجمود في مكانها، رغم

رغبتها اليائسة في التراجع إلى الخلف بضع خطوات، والابتعاد عنه قدر الإمكان.

- لا.

وأحست بالارتياح حين توقّف عند هذه الكلمة. توقّف على بعد أمتار منها، وراح يحدّق إلى وجهها.

وعاد يقول: «لا، حتى أنك لم تبقي لتري ما سأقوله... أو حتى لتسمعي ما لديّ لأقوله. هربت قبل أن أدرك ذلك».

- وهذا أفضل، أليس كذلك؟.

كرهت قدرته على جعلها تشعر بالذنب في حين أنها هي التي تعرّضت للخداع، وهي التي استغلّت في هذه المسألة.

- هذا أفضل...؟.

جمد جايك تماماً، وعبس وهو يفكّر في هذا الاتهام الأخير. اللون الداكن في عينيه أقلقها وأزعجها. بدا جلياً أنه لا يعرف عمّا تتحدّث.

سألها: «وما معنى كلامك هذا؟».

- كان من غير المناسب أن أبقى لتجدني صديقتك في المنزل عند عودتها!.

آه، تباً، تباً، تباً، تباً!.

لقد أقسمت على ألاّ تأتي على ذكر هذا الأمر أبداً. كانت تفضّل الموت على أن يعلم أنها أدركت كم استغلها بحقارة وأذلّها تلك الليلة. لم تشأ أن يعرف، لأنّ هذا يعني أنه سيعلم أنها زحفت عائدة... وأنها لم تكن قادرة فعلاً على الرحيل والابتعاد، حتى أدركت أنه غرر بها ما حطمها نهائياً.

وهكذا، كانت مجرد حطام عندما وصلت إلى الشقة بحيث أنّ انطونيا استلمت بكل بساطة زمام الأمور. فأجابت على الاتصال الذي تجرأ جايك على اجرائه بكل وقاحة، مدّعياً أنه قلق عليها. كما أنّ انطونيا تعاملت معه، وأبعدته عن شقتها عندما حضر في اليوم التالي متحججاً بسبب تافه. كانت مرسيدس مستاءة إلى درجة جعلتها لا ترغب حتى في مواجهته.

- صديقتي... أتعنين كارين؟.

- لا أعرف اسمها، إنما أعرف شكلها... طويلة...

- شعر أشقر فاتح... يكاد يكون أبيض.

تدخّل جايك ليكمل الوصف بسرعة وسهولة جعلتها تشعر بالغثيان. حتى الآن وبغبائها وسخافتها وسذاجتها، سمحت لنفسها بالتمسك بأمل صغير وخفي بأن كارين تلك ربما، وربما وحسب، ليست صديقته كما ظنت. وأنها لم تأتِ إلى الشقة من أجل جايك بل من...

من أجل ماذا؟ لم تكن تعلم كما لم تكن تأبه. لقد أملت وحسب... وخاب أملها بشكل فظيع.

- شعر قصير جداً... جداً وهي نحيفة جداً...

- وكانت تحمل مفتاح باب بيتك الأمامي، وقد استخدمته وكأن البيت بيتها.

لم تشأ أن تتذكر لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها. وعادت بالذاكرة إلى لندن، إلى ليلة مظلمة ورطبة، حيث وقفت مرتجفة، تراقب امرأة شقراء طويلة القامة وهي تصعد السلالم المؤدّية إلى الباب، وتدخل المفتاح في القفل... وتسمعها تنادي...

قال جايك بنبرة حادة: «كانت تملك مفتاح بيتي، وقد ظننت أني استعدته منها. لكني لم أتوقّع أن تحتفظ بنسخة عنه».

رمقته مرسيدس بنظرة قاسية وشاحبة. يمكنه أن يجد حجة أفضل من هذه! حجة من شأنها أن تقنعها على الأقل. حجة يمكن...

آه، يا إلهي! وأدركت فجأة المنحى الذي اتخذته أفكارها.

حجة من شأنها أن تقنعها على الأقل. أملت فعلاً أن يتمكّن من إقناعها بأن حضور كارين كان بريئاً تماماً. وأنه لم يكن يتوقّع زيارتها... وأنها لا تعني له شيئاً.

وهي مرسيدس، بعماها وسذاجتها وضعفها وغبائها، أرادت أن تصدّقه!.

ولم تعد تحتمل النظر إليه، أو حتى البقاء في الغرفة نفسها معه، فأشاحت بنظرها عنه بيؤس، والتقطت حقيبتها ثم توجهت إلى الباب بقدر ما تمكّنت من السرعة. كانت تعلم ما تتوقعه؛ حتى أنها شجّعت نفسها لمواجهته، وأحنت كتفيها في مواجهة تهمة الهرب مجدداً التي توقّعت أن يقذفها بها في هجوم سريع.

وتفاجأت حين لم تسمع اتهامه. وبدلاً من ذلك، لم تسمع سوى كلمة وحيدة... اسمها.

- مرسيدس...

دعها تذهب أيها الأبله! هذا ما قاله جابك لنفسه بغضب. دعها ترحل واستعد حياتك... وسلامة عقلك.

لم يلاحق امرأة من قبل في حياته ولم يكن ينوي البدء بذلك الآن. في الواقع، لم يتفاعل قط مع أي امرأة كما تفاعل مع مرسيدس ألكولار. فمنذ التقاها، وحياته مقلوبة رأساً على عقب. لقد أصبحت هاجسه، وهوسه، رغبة لا يستطيع التخلّص منها.

لو لم يكن يعلم أنه سيجدها حكماً في زفاف رامون، لأضاع وقته وجهده في تقفي أثرها، ليكتشف أين تعيش ويلحق بها ويعثر عليها. ما كان ليتمكّن من إخراجها من ذهنه لو لم يفعل. علم أنّ عليه أن يراها ولو لمرة واحدة بعد.

لا، اعترف بالحقيقة أيها الأبله، اعترف بأن هذا ليس صحيحاً!. رؤيتها لمرة واحدة لن تكفي أبداً، أبداً. كان يعلم منذ البداية أنّ عليه أن يحصل عليها وإن لم يفعل، فسيعاني من الجوع طوال حياته.

وهو لم ينل مراده حتى الساعة... ولم ينل منها سوى عناق كاد يفقده صوابه. وإذا ما أمل أن يهدّىء هذا العناق الجوع المتطلب في أحشائه والذي تأكله منذ رآها للمرة الأولى، فقد أخطأ تماماً.

والحقيقة هي أنّ الأمور ازدادت سوءاً.

وهو لا يزال يريدها.

إذا ما تركها ترحل الآن، فلن يتمكّن أبداً من إخراجها من ذهنه. ستبقى دوماً في فكره، كما فعلت في هذه الأسابيع التي مضت، حيث حرمته النوم، ومنعته من الراحة وتركته يتعرّق طوال الليل. وإذا تمكّن من النوم في لحظة ما، فيجدها تسكن أحلامه، تعذّبه وتقلقه حتى يستيقظ وهو يتألم من الحاجة ويرتجف من الإحباط.

هل يرغب في أن يعيش هذا مجدداً؟.

هل يرغب، تباً!.

لم تجب حين ناداها باسمها، حتى أنها لم تبدِ أيّ ردّ فعل أو ترمقه بنظرة. بل تابعت طريقها بعناد، من دون أن تلتفت إلى الخلف، من دون أن تلتفت في أيّ اتجاه آخر سوى الباب.

وإذا ما خرجت من ذاك الباب فسيفقدها إلى الأبد، وهو واثق من ذلك.

إنه وقت اتخاذ القرارات. الآن أو أبداً!

سارع خلفها ومدّ يده ليمسك بذراعها.

- مرسيدس... لا!.

لم تدرك أنه لحق بها حتى أمسك بها وأجبرها على التوقف وأدارها لتواجهه.

عن قرب، بدا أطول بكثير. بدا أطول، وأقوى وأكثر خطراً. كان صدره حائطاً صلباً، قوياً ومنيعاً، وأجبرت نفسها على أن تركّز على أحد الأزرار الثلاثة في قميصه. لم تستطع أن ترفع عينيها إلى وجهه... لم تشأ أن تفعل ذلك. فإذا ما رفعت عينيها إليه لرأى كيف لا تزالان مغرورقتين بالدموع، فيدرك أنه أذلّها وأهانها مجدداً.

سأل بنبرة خفيفة وعنيفة وبصوت أجش: «هل ستفعلين هذا مجدداً؟».

كلامه جعلها ترفع رأسها بحدة ورمشت بعينيها مراراً لتطرد الدموع منهما قبل أن يراها.

- ماذا سأفعل مجدداً؟.

حاولت أن تبدو باردة ولامبالية لكنها لم تنجح سوى في أن تبدو لاذعة ومشاكسة، فيما تكسّر صوتها بشكل خائن وهي تتكلم.

- تهربين مني من دون أن تتركي لي فرصة لأقول لك أيّ شيء... لأشرح لك.

- ولديك تفسير طبعاً؟.

- نعم، لديّ تفسير.

جاء إعلانه بارداً، خالياً من الإنفعال.

- إنما شرط أن تتنازلي وتستمعي إليّ.

لم تشأ أن تستمع إليه، لكن شيئاً ما في صوته وفي وجهه شدّها ولفت انتباهها. كما أنّ الطريقة التي صاغ بها كلامه، والنبرة التي قاربت العدائية في صوته، جعلتا من المستحيل عليها أن تتحرك.

لن يدافع عن براءته؛ لن يضغط عليها، ولن يفرض كلامه عليها ليدافع عن نفسه. وبدلاً من ذلك، أعلن ببرودة وصراحة أنه لن يتكلم إلاّ إذا رغبت في ذلك.

وهل تريده أن يفعل؟.

لم تستطع مرسيدس أن تجد رداً عن هذا السؤال. كما أنّ المعركة التي خاضتها ضد نفسها لتجد هذا الرد، من دون أن تظهر كم عنى لها هذا السؤال في بادىء الأمر، جعلت كل عضلة من عضلاتها تتوتر، لا سيّما عضلات وجهها. شعرت بحنكها ينقبض، وفمها يشتدّ، ومعركتها ضد الدموع التي تجمّعت في مقلتيها والتي ما زالت تهدد بالانهمار تعني أنها لم تستطع سوى أن تحدّق إليه بعينين واسعتين وعديمتي الانفعال وهي تدرك أنّ غياب أيّ تعبير عن وجهها سيبدو وكأنها تتحداه وتثور عليه.

- حسناً.

وفجأة، أطلق جايك سراحها، وترك ذراعها تسقط إلى جانبها كقطعة حطب. وتجاوزها بصمت وبوجه جامد، ثم فتح الباب... فتحه على

اتساعه.

- أفضّل أن تغادري الآن. ولا تعودي.

شعرت وكأن هذه الكلمات صفعتها صفعة قوية. أجفلت مرسيدس بحدة، غير قادرة على أن تصدّق كم آلمتها هذه الكلمات.

كيف يمكن لأيّ شيء أن يؤلمها بعد؟ وكيف... كيف... يمكن لهذا أن يؤلمها أكثر مما حصل من قبل؟ لقد عرفت أنه كذب عليها، وأنه تلاعب بها طيلة الوقت وأنه استغلّها عندما كانا معاً في لندن. فلما إذن تجد الآن أنّ عدم اهتمامه بشرح ما حدث يؤثر فيها أكثر مما اكتشفته؟.

خطت خطوتين نحو الباب، وعيناها لا تزالان تحدّقان إلى وجه جايك. واكتفى هو بمراقبتها، فيما تحوّلت ملامحه الوسيمة إلى قناع جامد من اللامبالاة، حيث لم يرمش له جفن ولم ترتعش في وجهه عضلة. لكن شيئاً ما في عينيه لفت انتباهها وجعلها تجمد. تجمدت خطواتها ووجدت نفسها تقف في مكانها من دون حركة وغير واثقة، لا تعلم إن كان عليها أن ترحل أم أن تبقى.

- ما... ماذا أقول لأبي؟.

تمكّنت من أن تنطق بسؤالها هذا بصوت جاف، صدىء وكأنها لم تستخدمه منذ أشهر.

- أنا واثق من أنك ستجدين شيئاً ما.

والتفتت العينان الزرقاوان اللامعتان إلى الباب ثم عادتا إليها مجدداً فحاولت أن تجبر قدميها على التحرك... لكنها فشلت.

- حسناً... هيا اشرح.

إذا ما توقعت أن ترى الارتياح أو حتى الرضا يرتسم على وجهه، فقد خاب ظنّها. إذ نظر إليها مباشرة، فتشابكت العينان الزرقاوان الصافيتان بالعينين البنيتين اللتين علتهما الغشاوة وانعكس فيهما التردد.. نظر إليها من دون تردد ومن دون أن يطرف له جفن.

- كنا، أنا وكارين، على علاقة غير جادة، أو ظننت على الأقل أنها

www.elromancia.com

غير جادة. إنما يبدو أنها لم تشاطرني الرأي. قلت لها إنّ علاقتنا انتهت قبل أيام وطلبت منها حينذاك أن تعيد إليّ المفتاح. أعطتني إياه... أو هذا ما ظننته. لم يخطر لي أنها احتفظت بنسخة ثانية عنه. كما لم يخطر في بالي حتماً أنها ستعود إلى حياتي في تلك الليلة وكأن شيئاً لم يكن.

كان مزاجه سيئاً بما يكفي لإقناعها. والطريقة التي تكلم بها عن كارين أوضحت أنه لا يكنّ لها أيّ مشاعر. ليس الآن على الأقل.

إنما، هل هذا كافٍ؟.

خشيت أن تكون ساذجة بحيث تحاول أن تقنع نفسها لتصدّق ما أرادت تصديقه بشدة.

- كانت مسافرة في رحلة عمل وعادت قبل موعدها بيوم. ظننت أنها أعطتني مهلة كافية لأعود إلى رشدي... لكنها كانت مخطئة تماماً.

شيء ما في وجهها فضح ما كانت تفكر فيه. وكان قد ابتعد عن الباب فيما هو يتكلم، وسدّد إليه ركلة صغيرة بحيث أغلقه جزئياً. لم يقفله كلياً بطريقة تعكس كم كان واثقاً من الفوز... إنما بما يكفي ليظهر أنه يعرف الطريقة التي يعمل بها دماغها.

- ما أريد أن أعرفه هو كيف علمت بشأن كارين في بادىء الأمر. ظننت أنك هربت مني.

- لقد فعلت.

لم تشأ أن تخبره لأنّ هذا يعني الاعتراف بالحقيقة. والحقيقة هي أنها لم تتمكّن أبداً من التحرر منه، ليس كما ينبغي لها أن تفعل. وجعله يدرك كم هي خاضعة لسلطته أمر خطير؛ خطير جداً.

- إذن، كيف...؟.

- لقد عدت.

كانت مجرد همسة خفيضة ومرتجفة بحيث اضطر لبذل بعض الجهود ليسمعها. لكنه أدرك ما قاله وأومأ برأسه ببطء.

ردد كلامها بنبرة أشبه بخرخرة نمر، عميقة وغامضة من الرضا، ثم

أردف: «هربت مني لكنك عدت إليّ».

- كنت ك... كما قلت... كنت خائفة. ذعرت فهربت. ومن ثم...

ولم تستطع أن تعترف بالبقية، لم تستطع أن تخبره كيف زحفت عائدة، غير قادرة على التخلّص من شرك سحره الذي وقعت فيه.

- عدت ورأيت ك... كارين تصل وتترجل من سيارتها. كان بحوزتها المفتاح. رأيتها تدخل...

فأعلن جايك بفظاظة: «لو بقيت دقيقة أو اثنتين لرأيتها تخرج مجدداً».

واستعاد في ذهنه ذكرى اللحظة التي سمع بها الباب يُفتح: كيف ظن أنّ مرسيدس عادت... وخيبة أمله عندما أدرك أنها كارين.

وتذكّر بكآبة كيف كان عديم التهذيب تماماً، حتى أنه لم يحاول أن يتصرف بلطف. لكن شعوره حينذاك كان بعيداً كل البعد عن اللطف. كان جسده لا يزال ملتهباً من الشوق... وقد أدرك حينها أن كارين لن تتمكّن من إرضائه. أراد مرسيدس، وتشوّق إلى احتضان مرسيدس.

لعله جلس ساكناً لكن الدماء كانت تغلي في عروقه والاستياء يمزّق أحشاءه كما شعر حين اكتشف أنها اختفت، من دون أن تترك أيّ أثر يشير إلى أنها كانت هنا.

كان متوجهاً إلى الباب ليلحق بها؛ ليحاول العثور عليها في الشوارع المظلمة، المبللة بالمطر، حين سمع صوت المفتاح في القفل وصوت كارين يناديه.

- منحتها ما يكفي من الوقت لتسلّمني نسختها عن المفتاح ثم حرصت على أن تغادر منزلي.

بدت مرسيدس مذهولة... أم لعله الارتياح الذي ارتسم على ملامحها الرقيقة؟ وفجأة، وجد نفسه ينظر إلى تلك الليلة... وإلى تبعاتها... نظرة مختلفة كلياً، نظرة جعلت الرسالة المهينة واللاذعة التي أبلغته بها صديقتها لا تبدو رسالة الاذلال المتعمد التي ظنّها، بل ردّ امرأة

www.elromancia.com

مجروحة... امرأة عديمة التجربة... ظنت أنه تم استغلالها ورغبت في أن تنتقم.

- طلبت منها ألاّ تعود. وخرجت أبحث عنك لكنني لم أجدك فقد اختفيت تماماً.

- لكن... إنما... لماذا؟.

- لماذا؟.

زفر جايك أنفاسه في تنهيدة عميقة، غير منتظمة، ومرر يده بخشونة في شعره الكث الداكن.

- مرسيدس، ألا تصغين إلى أيّ كلمة أقولها؟ قلت لك... أريدك أنت ولا أريد سواك. لا أستطيع الاكتفاء منك. ولهذا لا أريدك أن ترحلي.

- أنت حقاً لا...

كانت عيناه واسعتين ولامعتين بعد أن انعكس فيهما نور الشمس المتوهج المنساب عبر النوافذ الكبيرة.

- أنا حقاً لا أريدك أن ترحلي.

وقرر أن يجازف فتقدّم خطوة ودنا منها أكثر، فلم تجفل أو تتراجع كما لم تحاول أن تهرب.

- أريدك أن تبقي لأني أريد أن أفعل هذا...

ومدّ يده ببطء ومررها على شعرها الحريري الطويل الذي انسدل كغمامة ناعمة حتى منتصف ظهرها.

ارتعشت تحت لمسته لكنها لم تقاوم بل وقفت جامدة من دون حراك، ترتجف كجواد أصيل عصبي، لم يروّض تماماً، عرف لمسة سيده وإن لم يتقبّلها كلياً بعد.

وعانقها عناقاً بطيئاً، طويلاً، متمهلاً، بدأ ناعماً ليتحوّل شيئاً فشيئاً إلى عناق أقوى، حيث ترافق الهوى واللطف ليصلا إلى حدود الشغف.

تنهّدت فيما اشتعلت النيران في جسدها كالنار في الهشيم

وأصبحت مشاعرهما كموجة عالية تتكسر فوق رأسيهما، فتبللهما، وتغرقهما وتجرفهما بعيداً في دفق من الأحاسيس الحارة.

ومرّ وقت طويل قبل أن يتمكّن جايك من التحرك أو حتى التفكير أو حتى فعل أيّ شيء سوى الاحساس بها.

لكن مرسيدس تراجعت قليلاً، وقلبها يخفق بسرعة بين ضلوعها، وأنفاسها المتسارعة تكاد تخنقها. وأخيراً، استطاعت أن تنطق: «جايك، عليّ أن أرحل. عليّ أن أعود إلى المنزل».

كافح جايك ليجعل نبضات قلبه تهدأ، ليتمكن من أن يسأل:

- هل عليك أن تفعلي ذلك حقاً؟.

- لا بدّ أنّ أبي افتقدني بعد أن لم يرني منذ الصباح. على أيّ حال، ظهوري الآن في المنزل وبمظهري هذا سيجعله يقفز إلى استنتاجات لا أرغب في أن يصل إليها، إذ ستوقعني في ورطة. لن يرتاح قبل أن يجعلني أعترف بالحقيقة.

- آه، مرسيدس... أيتها الآنسة ألكولار العزيزة. أصبح لدينا الآن سبب وجيه لندّعي أننا مخطوبان. فوالدك المحب لن يرحمنا إذا ما جمحت مخيّلته بالنسبة إلى ما حصل هنا اليوم.

www.elromancia.com

١٣ - نقاط على الحروف

«أصبح لدينا الآن سبب وجيه لتدّعي أننا مخطوبان».

تمنت مرسيدس لو تستطيع أن تمحو هذه الكلمات من ذهنها. تمنت لو لم تسمعها أبداً أو على الأقل لو تتمكّن من محوها كلياً من ذاكرتها بعد أن سمعتها. لكنها سمعتها ولم يكن بإمكانها أن تنساها.

ما يمكنها أن تفعله هو أن تحاول ألاّ تفكر فيها، وهذا ما صممت على أن تفعله. لعل هذا ضعف منها، وهو على الأرجح سخافة منها، وبالتأكيد محاولة للتهرّب من المشكلة، لكنها الطريقة الوحيدة التي وجدتها لتتمكّن من مواجهة الوضع والحصول على بعض السعادة منه.

لأنها كانت مصممة على اقتناص بعض السعادة.

فبعد أن أدركت أنها وقعت في حب جايك، أرادت أن تقضي معه أكبر قدر ممكن من الوقت... وبأيّ شروط. لن تطالبه بأن يحبها... فهي تعلم أنّ هذا مجرد حلم، أشبه بمحاولة الحصول على القمر. لم يأتِ أبداً على ذكر الحب أو أيّ شيء مشابه لكنه على الأقل يشعر برغبة كاسحة نحوها، رغبة لم يتوانَ عن إظهارها كلما التقيا. وهذه الرغبة ستجعله يتمسك بها حتى يملّ من ممانعتها ومن القيود المفروضة عليهما.

ويبدو جلياً أنه خطط للبقاء لبعض الوقت. فلأي سبب قال إنه ينبغي عليهما الاستمرار في خطوبتهما المزعومة؟.

- لا يمكن أن يكون سبب طلبه هذا الرغبة في إرضاء والدها، لأنها تعرف جايك تافرنر بما يكفي لتدرك أنه لا يحاول أبداً إرضاء الآخرين إلاّ إذا كان الأمر يرضيه أيضاً. وإذا كان يرضيه أن يبقى فسيبقى وستخضع هي

لرغباته إن كان الخضوع يعني أن يبقى قربها لأطول فترة ممكنة.

قريباً جداً سيرحل، سيعود إلى انكلترا وقد يرضى باستمرار علاقتهما لفترة وإن من بعد، لكنها تعلم أنّ جايك لن يحتمل علاقة كهذه لفترة طويلة. لا بدّ أنه سيتعب منها فيدّعيان أنهما يواجهان بعض المشاكل، وينفصلان وستضطر حينئذٍ إلى مواجهة الألم والكرب اللذين سيثيرهما فيها فقدانه.

لكنه هنا حتى الساعة. وعليها أن تحاول الاكتفاء بذلك طالما دام. علماً أنها في بعض الأحيان تكاد لا تحتمل فكرة أنّ كل ما تعتقد عائلتها بوجوده بينهما... أو كل ما ترجوه وتتمناه هي... لا وجود له.

ويوم تحدّث جايك عن مسألة الخاتم كان من هذه الأوقات الصعبة التي عاشتها في صراع مع نفسها.

ففي أحد الأيام وبعد أن أمضيا الصباح يكتشفان برشلونة، جلسا ليرتاحا ويرتشفا القهوة في مقهى صغير، فاقترح عليها جايك: «ربما علينا أن نختار خاتماً».

- خاتم؟.

للحظات لم تفهم مرسيدس ما عناه فاكتفت بالتحديق إليه من دون أن تفهم ثم عبست لشدة تشوّشها.

- أيّ نوع من الخواتم؟.

- خاتم خطوبة.

ردّ عليها جايك من دون أن تعكس نبرته أيّ شعور أو انفعال، من دون أي إشارة تساعدها في إيجاد الردّ المناسب ثم أضاف: «ماذا تظنين أننا سنختار غير هذا؟».

- ولِمَ سأرغب في خاتم خطوبة؟.

لم تستطع أن تمنع نفسها من الكلام؛ خرجت الكلمات من بين شفتيها، دفعتها أفكارها الباطنية إلى النطق بها؛ تلك الأفكار التي لم تجرؤ على تركه يكتشفها. لِمَ يظن أنها سترغب في خاتم لعلاقة غير موجودة

www.elromancia.com

حتى؟.

- هذا أمر طبيعي بين شخصين مخطوبين.

- لكننا لسنا خطيبين عاديين. في الواقع، لسنا حتى مخطوبين... كما تعرف تمام المعرفة.

النظرة التي رمقها بها من تينك العينين الزرقاوين الباردتين جعلتها ترتجف رغم حرارة النهار.

- إنما علينا أن نحافظ على المظاهر إذا ما أردنا أن يصدّقوا قصة خطوبتنا.

- ولمَ عليّ أن آبه بالحفاظ على المظاهر؟.

- ظننت أنّ هذا جلّ ما يهمك أنت... ووالدك.

جاءت نبرته حادة، فيما أصبحت عيناه أبرد من أيّ وقت مضى.

- هذا لأنه يظن أننا...

خرجت الكلمات متقطعة من حنجرتها الجافة ثم أردفت: «لأنك دفعته إلى الاعتقاد بأننا على علاقة».

- ولم تسرّه أبداً هذه الفكرة.

بدا جايك منهمكاً في تحريك قهوته إذ راح يحدّق إلى الفنجان من دون أن يرفع رأسه. لكن مرسيدس شعرت أن اهتمامه مركّز على صوتها وعلى أدنى ردّ فعل منها.

همس بنبرة ساخرة: «يبدو أنه يظن أنك خذلت العائلة».

ذكرته مرسيدس ببساطة: «هذه اسبانيا وليس انكلترا. وأبي يعتبر أنّ الشابة المحترمة لا... لا...».

- لا ترمي بنفسها على الرجل بمجرد أن يتعارفا.

اعترضت بحدّة: «أنا لم أرمِ بنفسي عليك!».

- كما لم أرك تقاوميني بشدّة أيضاً. وتلك الليلة في لندن، تركت لديّ انطباعاً مماثلاً أيضاً.

شعرت مرسيدس بوجنتيها تحمرّان بلون النار وارتجفت يدها بشدّة

بحيث اضطرت إلى أن تعيد فنجانها إلى صحنه خوفاً من أن تريق القهوة على الطاولة الخشبية الملمّعة.

- لم... لم أكن على طبيعتي.

- بل كنت.

ردّ عليها جايك بحدة، ونظرته اللامعة ترتفع إلى وجهها لتعود على الفور إلى فنجان القهوة.

- أنا...

حاولت مرسيدس أن تتكلم لكن صوتها خذلها كلياً... ماذا يمكنها أن تقول؟ كيف يمكنها أن تشرح تصرّفها في حين أنها لا تفهمه هي نفسها؟.

لم تكن تفهمه حينذاك على الأقل. أما الآن فأصبحت تفهم ما يحصل لها جيداً. كانت في أولى مراحل الافتتان... افتتان تحوّل إلى الخطوة الأولى من تجربة غيّرت حياتها.

لقد خطت الخطوات الأولى نحو الوقوع في حبّ جايك تافرنر.

لكنها لا تستطيع أن تعترف بذلك، لن تعترف بذلك لرجل عرض عليها للتو خاتم خطوبة... خاتم خطوبة زائف... بعدم اهتمام وكأنه يقترح عليها أن تضع حلية صغيرة من منصة بيع في سوق للقطع الرخيصة.

- لم أكن أفكر بشكل سويّ.

لم تكن تفكر البتة، لكنها ليست مستعدة للاعتراف بذلك أبداً.

- ألم تكوني تفكرين بشكل سويّ أيضاً عندما هربت؟.

هذا هو السؤال الذي شغل باله منذ تلك الليلة. هذا هو السؤال الذي يحتاج إلى ردّ عليه حقاً.

لم تعجبه فكرة أنه تصرّف بفظاظة أو بعدم لباقة وجعلها تفرّ من المنزل مذعورة، لأنه لم يكن يدرك أنها عديمة الخبرة.

رفعت مرسيدس ملعقتها وبدت وكأنها ستضعها في قهوتها لتنزع الحياة منها. لكنها عادت وبدّلت رأيها فجأة فتركتها تسقط في الصحن محدثة صوتاً حاداً.

- لا أظن أني كنت أفكر حينذاك.

لم يكن هذا رداً على تساؤلاته، ما أجبره على طرح السؤال الذي أمل أن يتجنّبه.

- هل أخفتك؟.

- أخفتني؟.

ارتفعت العينان البنيتان الكبيرتان لتحدّقا إلى وجهه في انذهال مصدوم. ذهولها أراحه بعض الشيء، لكن صدمتها عذّبت ضميره المتعب أصلاً، ما جعله يشدّ يديه حول فنجان القهوة حتى ابيضّت مفاصل أصابعه.

- لا...

دفق الارتياح الذي أحس به وهي تهز رأسها كان أشبه بلطمة على وجهه بحيث أنّ نظره تشوّش للحظة فيما هو يراقب الطريقة التي تأرجح بها شعرها حول كتفيها.

أضافت بشكل غير متوقّع: «لقد أخفت نفسي».

- ماذا؟.

كان هذا آخر ما توقّعه وقد شوّشه أكثر فأكثر.

- أخفت نفسي... لأني تورطت كلياً ووقعت في الفخ بقدميّ الاثنتين.

وتنهدّت بخفة عندما رأته يعبس.

- هذا مربك ومخجل. أنت تعرف ماضي أبي... وكيف أنّ لي أخاً وشقيقين.

- ولرامون وأليكس والدتان مختلفتان.

كافح جايك ليحافظ على نبرة صوت عادية، لا تعكس أيّ شعور: الوقت غير مناسب الآن لكي يعلمها أنه يعرف عن وضع عائلتها أكثر مما تدرك. ربما، إذا لعب أوراقه بشكل صحيح فقد لا تعرف أبداً. ما الهدف من إفساد الأمور بإخبارها الآن؟ لا بدّ أنها ستتركه وترحل إذا ما فعل.

على أيّ حال، ستتركه يوماً ما، وهذا أمر لا مفرّ منه. ما من أحد منهما قدّم أيّ التزام في هذه العلاقة، كما لم تظهر مرسيدس أيّ دليل على أنها تريد أيّ شيء آخر أكثر مما لديها الآن. لكن ما من داعٍ لأن يدفعها إلى الرحيل قبل أن يذوي الهوى الذي يجمعهما. ما زال هناك الكثير مما يريد التمسك به... ولأطول مدة ممكنة تسمح له بها.

- إذن، كيف كان شعورك عندما ظهر الرجلان بشكل مفاجىء ومن العدم وأعلنا أنهما شقيقاك؟.

كيف شعرت حين أثبت والدها أنه زير نساء بائس، لم يتمكّن من البقاء وفياً لامرأة واحدة في حياته؟.

النظرة التي رمقته بها كانت حادة وصاعقة وشعر أنه وبطريقة ما، وبمحض الصدفة وعن غير عمد، وضع يده على جرح مؤلم بالنسبة إليها. أزعجه شعوره هذا وهزّ مجدداً اعتقاد أمه الراسخ بأنّ مرسيدس هي كأيّ فرد من أسرة ألكولار، باردة ومتعجرفة مثل أبيها.

- لا بدّ أن الأمر شكّل صدمة.

- هذا أقل ما يمكن قوله.

وارتجفت قليلاً لمجرد الذكرى.

- كان رامون واضحاً تماماً واستعمل أسلوباً مباشراً. فقد دخل إلى مكتب والدي وطالبه بالحقيقة... ورفض أن يغادر قبل حصوله على جواب شافٍ. مع... مع أليكس، كان الأمر مختلفاً...

وارتعش صوتها قبل أن يختفي كلياً.

- مختلف، وكيف ذلك؟.

طرح جايك عليها هذا السؤال عندما استمر صمتها لدقائق عدة، وبقيت تحدّق إلى فنجان قهوتها، ثم أردف: «ماذا حصل؟».

- لم يدع أحداً يعلم أنه ابن أبي... أو حتى أنه يشتبه في أنه ابنه. تقدّم بطلب عمل في شركة ألكولار... وحصل عليه... ثم عمل لحساب والدي لفترة، آخذاً وقته ومنتظراً أن تكتشف حقيقة الأمور.

ومررت لسانها بعصبية على شفتيها الجافتين فظن جايك فجأة أنه اكتشف كيف سارت الأمور.

- وماذا حصل؟ أفترض أنك التقيته حينها؟.

ايماءتها كانت صامتة، وعيناها مشوشتين.

- أنا... لم أكن أعلم من هو وكنت مجرد فتاة صغيرة حينذاك. بالكاد أبلغ السابعة عشرة. ف-... شعرت بانجذاب قوي نحوه وتعلقت به بشدة.

أشار جايك حين جمدت وقد بدا أنها تجد صعوبة في اكمال حديثها: «أفهم من كلامك... أنك ظننت أنك مغرمة به».

نظرت مرسيدس إليه فبدت وكأنها تتمنى لو تستطيع أن تنكر هذا التعليق بغضب، لكنها لا تستطيع ذلك في الواقع.

- لم يعاملك بشكل سيء، أليس كذلك؟.

إذا ما تصرّف هذا الشقيق اللعين على طريقة أسرة ألكولار معها... إذا ما فطر قلبها... فلديه حديث طويل معه، لا بل أكثر من حديث.

- أليكس؟.

أظهرت نبرة صوتها أنه أخطأ في تقديره. وتابعت تقول: «لا، أبداً! في الواقع، تصرفاتي هي التي دفعته إلى اعلان حقيقة هويته على الملأ قبل أن يصبح جاهزاً لذلك. ما كان بإمكانه أن يتصرّف بلطف أكبر... أو بمحبة أكبر في هذه المسألة. على أيّ حال، حتى وإن لم أكن شقيقته، فقد التقى قبلي المرأة التي قُدّر لها أن تكون زوجته».

- زوجته الحالية، أليس كذلك؟.

أومأت برأسها ايجاباً.

- لويز وهو سعيدان للغاية معاً.

سعيدان تماماً كما لن يكونا هي وجايك أبداً، لم تكن مضطرة للنطق بهذه الكلمات؛ فقد ظهرت في صوتها وفي عينيها. لكن جايك لم يكن لديه الوقت أو المكان في أفكاره ليعالج هذه المسألة حالياً. وبدلاً من ذلك، راح

يفكر في أليكس، ويرى الوجه الآخر لهذا الرجل في ذهنه، ويقارنه بالصورة التي يراها في المرآة يومياً.

رجلان طويلا القامة، بشعر داكن وعينين فاتحتي اللون. رجلان بذقنين حازمتين، وشفتين ممتلئتين. رجلان ببنية نحيلة إنما قوية وساقين طويلتين... رجلان قد يظن الناس أنهما شقيقان، أو نسيبان على الأقل كحاله هو ورامون في الواقع.

رجلان متشابهان بما يكفي لفرض السؤال الذي لم يشأ أن يواجهه في ذهنه. متشابهان إلى درجة جعلته يتساءل عما إذا كانت قد وجدت فيه شخصاً يشبه أليكس... أخاها المحرّم عليها... ليحل محل الرجل الذي لم تستطع الحصول عليه.

لم يرحه هذا الشعور. فكرة أنها لا ترغب فيه من أجل شخصه بل لأنه أقرب ما يمكن أن تحصل عليه إلى الرجل الذي أرادت أن تحبه يوماً.

- قلت إنك أخفت نفسك. فماذا عنيت فعلاً بذلك؟.

أشاحت عينيها عنه ونظرت إلى البعيد، رافضة أن تلتقيا نظرته المتسائلة والمتطلبة.

- أنا... أنا لا أتصرّف عادة بهذا الشكل. أنا لا أتسرع أبداً وأتصرف بلا تفكير... لطالما اعتبرت نفسي ابنة أمي. عندما اكتشفت أمر رامون وأليكس، ورأيت عدم مسؤولية والدي التي مزّقت عائلتنا... وغيرها... أقسمت على أن أكون حريصة دوماً، وعلى أن أفكر قبل أن أتصرف. تلك الليلة، أدركت أني أستطيع أن أكون مندفعة ومتهوّرة وعديمة التفكير كوالدي، فأصبت بالذعر.

واعترفت مرسيدس لنفسها أنّ هذا أقصى ما تجرؤ على قوله. لم يكن لديها الشجاعة الكافية للاعتراف بأنها لم تقم بأيّ ردّ فعل مماثل إلاّ أمام رجل واحد... وهو جايك. حتى عندما شعرت أنها مولعة بأليكس واعتقدت أنها مغرمة به، لم يكن ذاك الاحساس ليقارن بموجة المشاعر العارمة التي اكتسحتها منذ عرفت جايك.

- عليّ أن. . .

ولم تتمكّن من النطق بالكلمة الأخيرة. فما إن فتحت فمها وأخذت نفساً لتتكلّم حتى هبّ على قدميه بسرعة وخفّة، وبسيطرة مخيفة.

- مرسيدس.

كانت نبرته أكثر تهديداً من ذي قبل.

- ما هو وجه الاختلاف؟

إذا ما قاومت، فسيحكم قبضته عليها. وكانت ملتصقة به بحيث أن أيّ محاولة لمقاومته ستزيد الأمور سوءً. ستبدو الحركة حميمة ومثيرة وليست عصياناً كما أرادتها أن تكون.

- جايك. . .

وعندما رفعت نظرها إلى عينيه، رأت كيف استحال لونهما الأزرق الجليدي داكناً بعد أن اتسع بؤبؤاهما الأسودان، فاكتسحا اللون الفاتح باستثناء حاشية صغيرة، أشبه بقبة السماء، تحيط بهما.

وأصبح وهج الشمس باهتاً مقارنة مع دفق النار في شرايينها. فالمشاعر التي تملّكتها كانت قوية وكاسحة، لا تتناسب مع المقهى الموجود في الهواء الطلق.

سألها جايك مجدداً: «ما هو وجه الاختلاف؟».

نبرته الخشنة والجافة اخترقت الهالة المضيئة، وبددت اللحظة الذهبية في أقل من لحظة.

تمنّت لو تستطيع أن تتحداه. وصلّت كي تتمكّن من الصمود لوقت أطول، إلاّ أنّ تينك العينين الزرقاوين حدّقتا إلى عينيها، وبدتا وكأنهما تهددان بسحب روحها من جسدها وإخضاعها لفحص دقيق وعنيف إذا ما قاومت. وعلمت حين ضغطت أصابعه القوية على ذراعها بشكل جليّ، أن عليها أن تجيب عن سؤاله أو أن تواجه النتائج المخجلة والمربكة في مكان عام للمرة الثانية.

حاولت أن تتهرّب، آملة أن تتمكن، حتى في هذه المرحلة المتأخرة، من

إنهاء هذه المسألة والنفاذ بأنصاف الحقائق: «كان الكل موجوداً. وأبي يعرف جيداً كيف أدان الكل استريللا. . . . وكيف تجاهلوها ونبذوها. . . ولم يشأ أن أواجه المصير نفسه».

وعندما صمتت، سألها جايك بخشونة: «و؟».

بدا جلياً أنه لم يقتنع بأنّ هذا التفسير هو التفسير الوحيد، وأنه غير مستعد لترك الموضوع عند هذا الحدّ.

- و؟.

- و. . . كان يعلم أني وعدت. . . أني وعدت أمي.

- أمك؟.

من الواضح أنّ هذا آخر ما توقّعه جايك وارتدّ رأسه إلى الخلف بحدة فيما ضاقت عيناه الباردتان في تقييم سريع، عابس. حتى أنّ قبضته على ذراعها ارتخت بعض الشيء.

- بما وعدت والدتك بحق الجحيم؟.

- أني. . .

لا بدّ لها أن تعترف بالحقيقة، لا مفرّ من ذلك. لا يمكنها أن تعطيه رداً آخر وتأمل أن تقنعه. لا شك لديها في أنه سيعرف إذا ما اقتصدت حتى في إعطاء الحقيقة. سيقرأ ذلك في عينيها وسيعتمد على ترددها الخائن كصقر صيّاد ينقض على فأر مذعور اختاره كطريدة له.

- وعدتها بألاّ أعاشر سوى الرجل الذي أحب وأتزوج، وبألاّ أتخلّى عن عذريتي لرجل لا يقدّرها، لشخص لا أحبه.

لو أنها رفعت يدها وأنزلتها بقوة وبشكل مؤلم على خده، لما بدا مصدوماً ومذهولاً أكثر مما هو عليه الآن. في الواقع، أصبحت عيناه الزرقاوان الصافيتان غائمتين، ونظرتهما الصريحة أضحت مشوشة كما لو أنها استخدمت القوة ضده فعلاً. بعدئذٍ، راح يهزّ رأسه ببطء وبشكل متعمد.

قال بصوت جلف، متكتر: «لا. . . لا».

قبل أن ينهي كلامه، وقبل أن يتمكّن من قول ما ينكره بالتحديد، فقدت أعصابها مجدداً. لم تتمكّن من احتمال أن تسمعه يستمر في الكلام. لم تحتمل أن تدعه يستمر في حال قال لها إنه لا يمكنها أن تحبه... لأنه لا يريدها أن تفعل. وهذا آخر ما توقّع حدوثه، وآخر شيء قد يرغب فيه يوماً.

فكرة أن تكون قد وقعت في حبه جعلته يصاب بالذعر.

لذا، أجبرت مرسيدس نفسها على السيطرة على مشاعرها، وجاهدت لترفع رأسها وتنظر إلى وجهه مباشرة.

- لهذا السبب ذعر أبي إذ خشي أن أكون قد تورطت معك ما قد يسبب له فضيحة. فهو لا يعرف أنّ لا داعي لخوفه، إذ لا مكان للحب في ما بيننا... أليس كذلك؟.

ردّ جايك بصوت مخنوق: «لا، طبعاً».

كان الذهول لا يزال مرتسماً على وجهه وكأنه صادف لتوّه شيئاً مرعباً ومروّعاً. بدا وكأنه يقف عند حرف منحدر صخري شاهق وينظر إلى الأسفل ليرى حقيقة السقوط الطويل، الطويل.

وأجبرت نفسها على الاعتراف بأنّ هذا هو السبب الذي دفعه لأن يقول لها إنه يريدها بدلاً من أنه يحبها.

فهو لا ينوي... ولم يفكر... أبداً في أن يتزوجها. إنه يريدها ويرغب فيها... ولعله يأبه لأمرها على طريقته الخاصة. لكنه لا يحبها.

قد تعتبر نفسها حبيبته لأنها تحبه بشكل يائس، إنما ما من مستقبل لهما معاً. فهي لن تكون يوماً أكثر من مجرد عشيقة له إذا ما قررت الاستسلام لفيض المشاعر الذي يكتسحها حين تكون معه، وقد حان الوقت لكي تواجه هذه الحقيقة.

- هل ترى الآن لما لا أريدك أن تشتري لي خاتماً؟ فهذا تبديد للمال لا فائدة منه.

- لديّ ما يكفي من المال لتبديده.

وتساءل جايك إن كان الأمر يغريها؟ ظنّ أنه رأى بريقاً في عينيها...

إنما للحظة واحدة فقط. لكنها رمشت بعينيها فاختفى البريق ليخلّف وراءه فراغاً، سواداً كئيباً.

- لا تبدّد مالك عليّ.

- اهداء امرأة جميلة قطعة من الحلي لا يعتبر تبديداً للمال.

- لكننا لا نتكلم هنا عن قطعة حلي عادية. لمَ قد أرغب في خاتم كرمز لشيء أعرف تمام المعرفة أنه مجرد شيء مؤقت؟ علاقة ستنتهي عاجلاً وليس آجلاً، علاقة لن تدوم وكلانا يعلم ذلك.

- إنما يمكنك أن تحصلي على خاتم حتى في هذه الحالة.

- لا! خاتم كهذا ليس إلاّ كذبة! وأنا لا أريد هذا! إذا ما سمحت لأحد ما بأن يلبسني خاتمه، فأريده أن يعني شيئاً! أريد أن أضع خاتم رجل يحبني وأحبه بدوري. أريده أن يكون في إصبعي لأني لا أريد أن أخلعه أبداً، أبداً. لأني أريد هذا الخاتم في إصبعي... وذاك الرجل... في حياتي إلى الأبد.

خطر لجايك أنّ كلامها وضع النقاط على الحروف. لا يمكنها أن تجعل الأمور أكثر وضوحاً حتى ولو حاولت ذلك.

علاقتهما علاقة مؤقتة، لا مستقبل لها ولا معنى حقيقي لها. وهي ليست ملتزمة بها أبداً... ولا ترغب في ذلك أيضاً. إنها لا تزال تبحث عن حب حياتها، وعلاقتها به علاقة فرضتها عليها الظروف وتقاليد بلادها وخوفها من المجتمع... علاقة تعتبرها مجرد تسلية... تسلية وحسب.

حسناً، هذا الأمر يناسبه. فقد عاش حياته بهذه الطريقة حتى الساعة! هذا يناسبه.

وهذا مراده...

... حتى الساعة.

لم يعجبه كيف بدت الكلمات فارغة وكاذبة حتى في ذهنه هو، إذ فشلت في إقناعه بأنه عناها فعلاً.

١٤ - اسأليه هو

كاد الشهر ينتهي.

مرّ الوقت من دون أن تشعر به مرسيدس حقاً. لكن الأسابيع الأربعة التي خطط جايك لقضائها في اسبانيا كادت تنتهي الآن. سيعود رامون واستريللا من شهر عسلهما بعد ثلاثة أيام؛ وعندما سيفعلان، فسيضطر جايك لترك الشقة.

عندئذٍ، سيعود إلى انكلترا...

ما يعني أنه سيترك مرسيدس!

المشكلة هي أنها لا تعرف ما إذا كان رحيله مؤقتاً وحسب أم أنّ خبر عودة أخيها إلى المنزل يعني بداية النهاية بالنسبة إليها.

كانت تعلم أن عودة رامون واستريللا هي العذر المناسب ليتمكّن جايك من الانسحاب من علاقتهما، إما بشكل علني وإما بادعاء أنه سيبقى على اتصال بها ليدع الأمور تنتهي تدريجياً بكل بساطة. وهو سيختار الحل الأول على الأرجح، فهي تعرفه تماماً إذ ليس من الرجال الذين يراوغون في حلّ قضاياهم. إن كان لديه مشكلة فسيواجهها ويعمل على حلّها على الفور. عندما تذكرت الطريقة التي تحدّث بها عن إنهاء علاقته بكارين، أدركت مرسيدس أنّ عليها أن تتوقع النوع نفسه من الصرف الفظ عندما يحين وقتها.

إنّ جايك يشبه أخاها جواكين إلى حدّ بعيد في هذا. جواكين الذي لطالما حرص على ألاّ تستمر علاقاته أكثر من سنة واحدة...

حتى عرف كايسي... تسللت كايسي بحرص وحذر إلى قلب أخيها

المحصّن وبقيت فيه. وها هي الآن، زوجة جواكين، وقد تحوّل شقيق مرسيدس المصرّ على العزوبية إلى أسعد الرجال المتزوّجين.

وأسعد الآباء المستقبليين أيضاً.

أجفلت مرسيدس بحدّة لهذه الفكرة، فهي لن تحمل يوماً أولاد جايك ولن تعرف فرحة الأمومة معه. جايك لن يفكر يوماً في الزواج منها، فهو لا يحبها ولن يحبها.

صوت من خلفها جعلها تقفز وتستدير من حيث كانت تقف محدّقة من النافذة لتكتشف أن والدها دخل إلى الغرفة.

- لقد اتصل رامون. سيعود هو واستريللا غداً.

- بهذه السرعة؟.

شعرت مرسيدس باللون يختفي من وجنتيها. ظنّت... أملت... أن تتاح لها فرصة أطول مع جايك قبل أن يقع ما لا مفرّ منه.

مازحها والدها قائلاً: «لا تبدين سعيدة بهذا الخبر. ألست سعيدة بعودة شقيقك؟».

- في الواقع...

وخانها صوتها فلم تستطع أن تكمل كلامها، لكن بدا أنّ أباها فهمه وهذا ما لم تتوقّعه.

- عودة أخيك تعني أنّ خطيبك سيعود إلى دياره، إلى انكلترا، أليس كذلك؟.

طرح سؤاله هذا بنبرة متعاطفة نادراً ما سمعته مرسيدس يستخدمها من قبل. نادراً بحيث أنه دفعها إلى الكلام من دون احتراس.

- أخشى...

لم تستطع أن تنهي جملتها؛ لم تستطع أن تعبّر عن مخاوفها بصوت عالٍ. لكن والدها أومأ برأسه إيماءة تفهّم.

- تخشين أن يتغيّر كل شيء إذا ما رحل. تخشين أن ينساك!

همست مرسيدس: «بعيد عن العين، بعيد عن القلب».

- لن تجري الأمور على هذا النحو، إن كان يحبك فعلاً.

إن كان يحبك فعلاً...

أغمضت مرسيدس عينيها إزاء الألم الذي تسببت به هذه الجملة لها. هذه هي مشكلتها، هنا في هذه الكلمات الأربع المهمة، والعاطفية.

إن كان يحبك فعلاً...

سألها خوان ألكولار بلطف: «هل تشكّين في شعورك نحوه، هل هذه هي مشكلتك؟».

- آه، لا!.

خرجت الكلمات من بين شفتيها بشكل عفوي فيما فتحت مرسيدس عينيها على اتساعهما لتنظر مباشرة في عينيّ والدها السوداوين.

- لا، هذه ليست المشكلة! فأنا أحبه؛ أحبه فعلاً. أظن أني وقعت في حبه منذ رأيته للمرة الأولى.

أخبرها خوان بنبرة غامضة: «أنت تشبهين أمك في هذا. لطالما قالت إنها أحبتني منذ البداية، لكني لم أقدر مشاعرها حق قدرها. فزواجنا كان زواجاً مدبّراً».

- أعلم ذلك، فقد أخبرتني أمي. قالت إنها أحبتك حباً جماً. لكنها اضطرت للانتظار حتى بادلتها هذا الشعور.

تنهّد والدها، ومسح وجهه بيده في حركة جعلتها تفكّر على الفور في أخيها جواكين. مرت علاقة والدها وأخيها الأكبر بصعاب عديدة وتواجها مراراً... ربما لأنهما متشابهان للغاية... لكنهما يعيدان الآن بناء علاقة جديدة، ويوماً عن يوم تتوطّد هذه العلاقة أكثر فأكثر.

- كنت غبياً وأعمى. كنت مغرماً للغاية بمارغريت...

- والدة رامون؟.

- نعم، والدة رامون. وعندما توفيت... بعد ولادة رامون بوقت قصير جداً... فقدت أعصابي وخرجت عن طوري. لقد لامتني أسرة مارغريت بالطبع على موتها... ولم تغفر لي أبداً، حتى قبل أن يعلموا أن

رامون ابني. كانت أختها تكرهني... وقد أقسمت على أن تنتقم مني... كما أني شعرت بالذنب فعلاً. لقد فقدت صوابي ولجأت إلى معاقرة الخمرة... فارتكبت عملاً أحمق للغاية.

لم تستطع مرسيدس سوى أن تومىء بصمت. إنها تعرف القصة الآن. كيف أن أباها اليائس والحزين لفقدانه المرأة التي يحب، سافر إلى انكلترا وعاشر إحدى النساء في ليلة كان فيها ثملاً... وجاءت النتيجة بعد تسعة أشهر... أليكس، أصغر أشقائها الثلاثة.

- إنما عندما عدت إلى البيت، كانت والدتك في انتظاري. فلملمت حطام الرجل الذي كنت عليه وأعادتني إلى صوابي وإلى الطريق القويم. وأخيراً، تعلّمت معنى الحب الحقيقي والصحيح. لكني كنت قد أضعت الكثير من الوقت، فلم نمضِ ما يكفي من الوقت معاً.

وتوقّف عن الكلام ثم تنهّد تنهيدة خرجت من أعماق روحه.

- كنت ثمرة تلك المصالحة يا عزيزتي. ومهما كانت الأخطاء الأخرى التي ارتكبتها في حياتي، إلاّ أنّ تلك لم تكن غلطة. جئت ثمرة للحب يا مرسيدس، وبسببك، تسنّى لي ولأمك فرصة لكي نحاول مجدداً... لنشكّل عائلة حقيقية. إذن، أأنت غير واثقة من مشاعر جايك؟.

وللحظة، بقيت مرسيدس تحدّق إلى أبيها في ذهول فارغ، من دون أن تفهم من أين أتى سؤاله هذا. لكنها استعادت الحوار الذي كان دائراً بينهما وأومأت ببطء.

- لا أعرف حقيقة مشاعره.

- لكن، إذا ما طلب يدك للزواج...

لاحظ خوان النظرة السريعة، اللامعة التي لم تتمكن من إخفائها قبل أن تخفض عينيها وتحدّق إلى الأرض.

- لم يطلب منك أن تتزوجيه.

- لا.

جاء جوابها مجرد همسة بائسة، خفيفة.

- لِمَ قال إذن إنه طلب يدك للزواج؟.
- لا. . . لا أعلم.
- أنا أعرف.

صوت رجولي آخر هو الذي قاطع حديثهما، وهذه المرّة كان أخوها جواكين هو من تكلّم. رفعت مرسيدس عينيها إلى وجهه، فرأت التعبير الجاد والبريق في عيني أخيها الرماديتين.

- كيف. . ؟.
- كنت هناك، أتذكرين؟ كنت أقرب إليه من أيّ شخص آخر. . . باستثناء أليكس. رأيت وجهه. . . وعينيه. لاحظ أنك في ورطة فلم يتردد. سارع وحسب لينقذك. . . فتكلّم من دون أن يفكّر.

هل هذا صحيح؟ هل يمكن أن يكون هذا حقيقياً؟ وجدت مرسيدس صعوبة حتى في التفكير في المسألة بشكل صحيح. كانت نبضات قلبها من السرعة بحيث أن دفق الدم عند صدغيها أصبح أشبه بالرعد، ما أشعرها بدوار وعطّل دماغها. لكن خلف هذا التشوّش، ظهر أمل صغير، صغير جداً.

إذا ما هبّ جايك لنجدتها. . . فربما هذا يعني أنه يأبه لأمرها. . . وإن قليلاً. وإذا ما حاولت أن تعالج علاقتهما بشكل مناسب، فربما تنجح في لمّ شملهما، كما حصل مع أمها وأبيها.

- هل تظنان. . . ؟.

حاولت أن تسأل إلاّ أنّ جواكين فتح يديه في حركة تشير إلى أنه غير متأكد.

- الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يجيب عن سؤالك هو جايك نفسه. فعليك أن تسأليه هو.

* * *

غداً، سيعود رامون وسيضطر لترك الشقة.

أخرج جايك حقيبته من الخزانة حيث وضعها خلال الشهر الماضي

ورماها على السرير، فاتحاً غطاءها بحركة عنيفة.

عليه أن ينتقل من هذه الشقة مهما حصل. عليه أن يمنح ابن خالته واستريللا الحميمية التي يستحقها أيّ ثنائي تزوّج لتوّه. في الواقع، لقد غاب عن لندن مدة طويلة. ورغم أنّ نائبه، مارك، ملأ الفراغ بشكل لامع، وبفضل التكنولوجيا تمكّن من البقاء على اتصال بمكتبه وكأنه لم يغادره تقريباً. . . إلاّ أنّ الوقت حان كي يعود ويمسك بزمام الأمور، وما من شيء يبقيه هنا.

باستثناء مرسيدس!

فتح جايك أحد الأدراج، وسحب منه مجموعة من القمصان رماها في الحقيبة من دون اهتمام إذ لم يكن يركّز أبداً على ما يقوم به.

مرسيدس. . .

لقد أتى إلى اسبانيا وفي نيّته أن يتخلّص من تأثيرها فيه. وبدلاً من ذلك، لم ينجح سوى بفعل العكس تماماً.

فمع كل يوم يمرّ، ومع كل دقيقة يمضيانها معاً، تزداد مشاعره عمقاً وتعقيداً، وتتعاظم حاجته إليها. ويبدو أنها تبتعد عنه أكثر فأكثر مع كل يوم يمضي.

ابتعدت عنه إلى حدّ أصبح واضحاً أنه من الأفضل له أن يستسلم الآن، ويعود إلى دياره، وينسى أمرها.

إذا ما أمكنه ذلك. . .

كومة من الملابس تبعت القمصان، وسقطت بشكل عشوائي في الحقيبة ليرمي فوقها بعض الأحذية.

«لِمَ قد أرغب في خاتم كرمز لشيء أعلم تماماً أنه شيء مؤقت وحسب؟»

صوت مرسيدس كان واضحاً جداً في ذهنه بحيث كاد يتخيّل أنها موجودة في الغرفة معه. هذه الذكرى اعتصرت شيئاً في أعماقه. . . لكنها لم تقض على الشعور الحسي الذي اعتاد أن يختبره كلما كان برفقة مرسيدس أو كلما فكّر فيها. ومؤخراً، بدأ يشعر بأحاسيس أخرى وأعمق في صدره.

وإذا ما أراد أن يكون صادقاً، لقال إن المشاعر التي يحسّ بها تتمركز في نقطة تشير إلى أنها دخلت قلبه.

إنما لا يهم ما يشعر به أو أين يشعر به. ففي الأسبوعين الماضيين، بقيت مرسيدس على مسافة منه من الناحية العاطفية.

كان يمضي اليوم بأكمله معها، يتحدّث إليها، ويضحك معها ويمازحها، إلاّ أنّ مرسيدس الحقيقية بقيت بعيدة عنه بطريقة ما، لا يستطيع الوصول إليها. إذا ما تحدّث في أيّ موضوع جاد، أيّ شيء قد يقودهما إلى مستقبل يجمعهما معاً تهرّبت تماماً كما فعلت حين تحدّثا عن موضوع شراء خاتم لها، حين استغلت المناسبة لتوضح له وبشكل جلي وصريح أنها لا تريد أيّ شيء قد يشير ولو إشارة بسيطة إلى أيّ التزام بينهما، سواء أكان حقيقياً أم زائفاً. وباتت تعمد دوماً إلى تجنّب المواضيع الجادة بسرعة، لتنتقل إلى مواضيع أخرى أقل أهمية، أو تلقي بنكتة أو تجد فجأة ما يثير اهتمامها في واجهة أحد المحال التجارية.

لعله أصبح يعرف مرسيدس جيداً، ولعله يمضي معظم وقته معها، ولعله تحدّث معها في مواضع شتى وعانقها ومازحها وضحك معها... إلاّ أنه يشعر أنه لن يتمكّن يوماً من الوصول إلى جزء أساسي وهام منها، جزء لن يتمكّن أبداً من ملامسته. جزء خفي من قلبها... ومن روحها... لن يكون له أبداً.

وكلمة أبداً هذه هي التي جعلته يقرر الرحيل.

لو كان لديه أيّ أمل، مهما كان صغيراً، في أنّ الأمور ستتغيّر، لبقي وكافح... وصلّى لكي ينتصر يوماً ما.

إنما بدا في الأيام القليلة الأخيرة أنّ مرسيدس ابتعدت عنه أكثر فأكثر. ها هو يفقدها الآن «والعاجل بدلاً من الآجل» الذي تنبأت به بدأ يتحقق.

لذا، وإذا كان حكيماً بما يكفي، فسيعتبر عودة ابن خالته انذاراً بأنّ الوقت المخصص له قد انتهى. لا بدّ له من أن يرحل فيما لا تزال كرامته مصانة، ولا يزال بإمكانه إبقاء رأسه عالياً. سيودّع مرسيدس، فهذه هي

الفرصة الوحيدة ليفعل ما تريده فعلاً... ويتركها. وإذا ما تمسّك بها كما يرغب في أن يفعل، وانتظر حتى تقوم هي بهذه الخطوة وتودّعه، فلن يودّعها أبداً وهو يعلم ذلك تماماً. سيتخلّى على الأرجح عن كبريائه ويرجوها أن تعيد التفكير في الأمر. سيضعها في موقف تكره أن توضع فيه... وبالتالي ستكرهه لتسببه بذلك.

كان يتوجّه إلى الحمام ليجمع أدوات الحلاقة عندما تناهى إليه صوت جرس الباب.

- مرسيدس!

لا، ليس الآن! ليس قبل أن تتسنى له الفرصة ليستعيد رباطة جأشه ويتمالك نفسه. ليس قبل أن يفكر في الكلمات التي عليه أن يقولها... وأن يجد القوة اللازمة للنطق بها.

إنما، ورغم كل شيء، رقص قلبه الأعمى والأحمق فرحاً لمجرد فكرة رؤية وجهها وسماع صوتها.

ولهذا، هوى قلبه بسرعة وقوة، ما أثار فيه إحساساً بالصدمة عندما رأى أنّ المرأة التي تقف أمام بابه أطول بكثير من تلك التي توقّعها، وأنها شقراء... وقد تجاوزت العشرين من عمرها بكثير.

- أماه! ماذا... ماذا تفعلين هنا؟

حدّقت اليزابيت تافرنر إليه بعينين زرقاوين صافيتين، وتأملت وجهه وكأنها تسعى خلف معلومة محددة فيه. إنه يعرف هذه النظرة حق المعرفة. وهي تعني أنّ شخصاً ما في ورطة، وهذا الشخص هو جايك نفسه على الأرجح.

- جئت لأعرف ما يجري هنا بالتحديد. تناهت إلى مسمعي بعض الشائعات السخيفة عنك وأردت التحقق مما إذا كانت صحيحة.

* * *

استغربت مرسيدس أن تجد باب شقة رامون غير مقفل. بدا وكأنّ أحدهم دخل لتوه إلى الشقة ودفع الباب خلفه من دون أن يتكبّد عناء التأكد

من أنه أقفل جيداً. دفعة واحدة بسيطة جعلت الباب يفتح بصمت، ما تركها حرة في أن تدخل إلى الرواق إذا ما أرادت ذلك.

إذا ما تجرّأت على ذلك.

انطلقت في الرحلة القصيرة من منزل والدها إلى الشقة التي اتخذها جايك منزلاً مؤقتاً له، وكلها أمل وتفاؤل. فبعد أن قوّى التفسير الذي أعطاه جواكين لتصرفات جايك من عزمها، قررت أن تفعل ما نصحها به والدها، فتبحث عن الرجل الذي تحب وتتحدث إليه لترى إن كان بالإمكان إنجاح علاقتهما.

عليهما أن يعملا لانجاح علاقتهما، فهي لا تستطيع العيش من دونه. لا، لن تلقي سلاحها بسهولة وتستسلم عند أول عقبة. ستحاول اقناعه بإعطاء علاقتهما فرصة أخرى.

لكن، ومع وصول المصعد إلى الطابق حيث شقة رامون، بدا لها أنّ شجاعتها كلها تبددت، سالت على السجادة، وتركتها مرتجفة وغير واثقة من نفسها.

الأصوات التي وصلتها من غرفة الجلوس جعلتها تجمد في مكانها، مترددة بين الدخول إلى الشقة وبين المغادرة.

إن كان جايك برفقة أحدهم، فلا يمكنها أن تنهي ما جاءت من أجله. يكفيها ما ستواجهه من صعوبة في التحدّث إليه وحده، وإذا ما كان معه شخص آخر... امرأة أخرى بحسب الصوت الذي تسمعه... فمن الأفضل أن تتخلى عن فكرة مواجهته ومصارحته وتعود في وقت آخر.

لكن، هل ستتحلّ بالشجاعة في مناسبة أخرى؟ إذا ما تراجعت الآن، فلا تعلم إن كانت ستتمكن من العودة إلى هذه النقطة مجدداً.

إنما عليها أن تفعل، إذا ما أرادت أن تعرف الحقيقة فعلاً. إلاّ أنّ التوقيت غير مناسب الآن، فجايك لديه ضيوف...

كانت تتراجع، لتخرج من الباب، حين سمعت اسمها يتردد في الحوار فجمدت، وأصغت جيداً إلى ما يقال.

- دعي مرسيدس لي يا أمي!

إنه صوت جايك الذي وصلها بوضوح عبر باب آخر مشقوق.

- سأعالج المسألة!

- بالطبع ستفعل.

كان الصوت النسائي حاداً وهازئاً وهو يضيف: «كما عالجتها حتى الآن... فوجدت نفسك عالقاً في هذه العلاقة السخيفة والمضحكة. عليك أن تحترس يا جايك وإلاّ ستدمّر أسرة ألكولار اللعينة حياتك، كما فعلوا بحياة مارغريت. أنت تعلم جيداً ما فعلوه بحياة أختي».

مارغريت! كان الاسم أشبه بطعنة سكين في قلب مرسيدس، حملت معها سيلاً من الذكريات... مقتطفات من قصص حياة أبيها السابقة، عن امرأة انكليزية تُدعى مارغريت. المرأة التي أحبها خوان ألكولار وفقدها. المرأة التي أنجبت ابنه وتوفيت بعد أشهر قليلة... والدة رامون.

«أسرة مارغريت لامتني بالطبع على موتها...» كلمات والدها قصفت كالرعد في رأسها، حاملة معها ردّ جايك على كلام والدته... «لم يغفروا لي أبداً. كانت أختها تكرهني... وقد أقسمت على أن تنتقم مني...».

أنت تعلم جيداً ما فعلوه بأختي.

كانت أختها تكرهني... وقد أقسمت على أن تنتقم مني.

وقد نادى جايك هذه المرأة بكلمة أمي!

استندت مرسيدس إلى الباب، وتمسّكت به جيداً لئلا تقع أرضاً، وأجبرت نفسها على البقاء والاستماع إلى الحديث الذي يدور في الغرفة المجاورة.

سمعت والدة جايك تقول: «لقد آن الأوان لكي تضع حداً لهذا الارتباط الزائف. تخلّص من هذه العلاقة سريعاً قبل أن تجد نفسك واقعاً في الشرك وعاجزاً عن الخلاص مجدداً. فأنت على أيّ حال، لا تريد أن تجد نفسك متزوجاً من هذه المرأة بالخطأ».

- أتزوجها بالخطأ؟.

كان صوت جايك ساخراً وأجش وهو يتكلم ثم أضاف: «لا، أؤكد لك أنّ هذا لن يحصل أبداً».

١٥ - انتقام أخير

وضعت مرسيدس يدها على فمها بسرعة لتمنع صرخة اليأس التي كادت تفلت منها. اشتدت قبضتها على حافة الباب حتى ابيّضت مفاصل أصابعها، وتعالى الطنين في أذنيها حتى أصمّها وكأنه صوت آلاف النحل فيما دار رأسها بشدة جعلتها تشعر بالغثيان.

وفي لحظة الضعف هذه، وفيما هي عاجزة عن التحمّل وسريعة التأثر، عاودتها ذكرى واضحة وحيّة للحظة التي اقترب بها جايك منها في تلك الحفلة في لندن، حين رأته للمرة الأولى، ولولا كلام انطونيا عنه لما عرفت أبداً من يكون.

لكنه كان يعرف من هي.

لقد تقدّم منها، بارداً وهادئاً ومتوازناً، حتى أنه لم يتردد أبداً.

قال لها: «أنت مرسيدس ألكولار».

وليس «هل أنت مرسيدس ألكولار» أو «أنت مرسيدس ألكولار، أليس كذلك؟» لم يطرح عليها السؤال بل اكتفى بالقول «أنت مرسيدس ألكولار». إعلان بارد وواضح... وليس استفهاماً.

كان يعرف تماماً من تكون وقد استهدفها منذ البداية. كل ما حصل كان خطة للانتقام، خطة وضعها في ذهنه منذ البداية وحتى النهاية.

اهربي! كل غريزة فيها صرخت بهذه الكلمة وطالبتها بالهرب. اذهبي! اخرجي من هنا الآن، قبل أن يسمعك أحدهما، ويدرك أنك هنا!.

لكن، ما إن استدارت حتى شقت ذكرى أخرى طريقها عبر أفكارها المشوشة واليائسة، وجعلتها تستقيم، وترفع رأسها عالياً، وتصلّب

www.elromancia.com مـرومـانـسـيـة

عمودها الفقري.

«هل ستفعلينها مجدداً؟».

استطاعت أن تسمع صوت جايك بوضوح تام كما سمعته حين رماها بهذا الاتهام في هذه الشقة... يا إلهي، هل حصل هذا فعلاً منذ ثلاثة أسابيع فقط؟ «هل ستهربين مني... وترحلي من دون أن تعطيني فرصة لأقول شيئاً ما... لأشرح لك...؟» إنما ما هو التفسير الذي قد يعطيه لما سمعته؟ ألم تسمعه بنفسها وبأذنيها هاتين؟ ألم يعبّر عن مشاعره بشكل واضح وصريح؟

كان جايك مصمماً على ألاّ ينتهي به الأمر متزوجاً منها. وهذا واضح بما يكفي، أليس كذلك؟.

لكنها لن ترحل وتتركه هو وأمه الحاقدة ينجوان بفعلتهما.

لن تهرب أبداً.

أخذت مرسيدس نفساً عميقاً، مهدّئاً، وابتلعت ريقها بقوة كي تريح حنجرتها الجافة إلى حدّ مؤلم.

إذا ما كان جايك تافرنر يكره وينفر من فكرة أن يتزوّجها إلى هذا الحد فعلاً... وإذا ما ادّعى وجود هذه الخطوبة المزعومة، وأسرها بسحره، لينتقم من أذى يعتقد أنّ والدها ألحقه بشقيقة أمه منذ زمن بعيد... فعليه أن يعترف لها بذلك وجهاً لوجه.

لقد سئمت من الهرب من جايك. ستدخل إلى غرفة الجلوس وتواجهه لتضع النقاط على الحروف بشكل حاسم، ونهائي.

أرجعت شعرها إلى الخلف، ومررت لسانها بعصبية فوق شفتيها الجافتين إلى حدّ مؤلم، وأجبرت نفسها على أن تخطو خطوة إلى الأمام، ومن ثم أخرى...

سمع جايك الباب يفتح من خلفه، لكنه ظن وللحظة أنّ الأمر مجرد تيار هواء تسبب بفتح الباب. إنما حين رأى عينيّ والدته تتحركان، ونظرتها تتجاوز كتفه والتعبير الذي ارتسم على وجهها، أدرك أن شخصاً ما دخل

إلى الغرفة.

من؟.

لكنه أدرك هوية ذاك الشخص حتى قبل أن يستدير.

شخص واحد باستثناء رامون، يمكنه أن يحضر إلى الشقة بشكل مفاجىء وغير متوقّع. شخص واحد يمكنه أن يرسم تعبير عدم التصديق والغضب و... نعم... وعدم الثقة على وجه أمه.

مرسيدس!

إنما مرسيدس بمظهر لم يرها عليه قط من قبل.

كانت ترتدي ثوباً أبيض طويلاً وعالي الياقة، يرسم مفاتن جسدها كلها ويظهر محاسنه، إلاّ أنّ وجهها الجميل بدا ضائعاً ومنهكاً، وقد غاب اللون كلياً عن بشرتها. بدت عيناها كبيرتين ومتكدرتين، وسوداوين كالفحم فوق خدّيها الشاحبين أما فمها الناعم والمغري عادة فقد تحوّل إلى خط مشدود وكأنما لتحرص على ألاّ تنطق أبداً، أبداً بكلمة أخرى.

بدت وكأنها وصلت إلى الجحيم وعادت منه. ولو لم يكن قد أدرك من قبل كم يحبها لاكتشف ذلك في هذه اللحظة بالذات.

- مرسيدس...

خرج اسمها من بين شفتيه مع أنفاسه، ناعماً وخافتاً كتنهيدة، لكنها سمعته فاستدارت لتواجهه.

ورمقته بنظرة آل ألكولار تلك.

تصلّب عمودها الفقري، واشتد حنكها وارتفع ذقنها ثم حدّقت إليه من أعلى أنفها الصغير الارستقراطي بنظرة تحمل الكثير من الازدراء.

حاولت أن ترمقه بنظرة ازدراء تام. إنما، وبما أنه أصبح حساساً بالنسبة إليها، يشعر بها ويدرك أيّ تغيّر في مزاجها وفي شخصيتها المتعددة الأوجه، شخصية مرسيدس ألكولار، استطاع أن يرى إشارات صغيرة تفشي عن غير قصد ما تخفيه من مشاعره، إشارات لم يكن يلاحظها في الماضي.

رأى الدموع تتلألأ في تينك العينين الداكنتين الواسعتين، والمعركة التي تخوضها ضد نفسها لتمنع فمها من الارتجاف، والسيطرة العنيفة التي تفلت منها حتى وهي تكافح لتفرضها على نفسها.

عندئذٍ، أدرك أنها سمعت. لقد سمعت حديثه مع والدته، فقررت أن تدخل لتعلمه برأيها الصريح فيه.

- لم أشأ أن تحصل الأمور بهذه الطريقة.

قال لها هذا عن عمد، شابكاً عينيه بعينيها، ناسياً والدته كلياً، ثم أردف: «لم أشأ ذلك ولو لقاء العالم بأسره».

- أحقاً؟

جاء سؤالها بارداً وسريع الانكسار كالثلج، حتى أنّ رأسها ارتفع أكثر، وفمها اشتد أكثر، إذا ما كان بإمكان ذلك أن يحصل.

- إذن، ما هي الخطة التي وضعتها؟ في حفل عائلي آخر... حدث اجتماعي آخر؟

- لا....

- أو لعلك فكرت في أن تصل إلى أقصى حدّ ممكن... هل هذا ما كنت تنويه يا جايك؟ هل كنت تصبو إلى أقصى أثر ممكن... إلى الوقت الذي يمكنك أن تذلني فيه كلياً.

تذلني.

انفجرت الكلمة في وجهه بقوة لغم أرضي. لم يكن يتوقّع هذا. هو المسكين، الأعمى، الأبله الغبي، نظر إلى وجهها وظن أنه فهم التعبير الذي ارتسم عليه... لكنه لم يفهم حتى جزءاً منه. لم يكن يتوقّع هذا حقاً.

وكان عليه أن يتوقّع ذلك طبعاً، فهي من أسرة ألكولار شاء ذلك أم أبى.

- تعتبرين طلبي الزواج منك إذلال وإهانة؟.

آلمه حتى أن يطرح هذا السؤال، إذ اعتصر قلبه وهدد بأن يخرجه من جسده ويمزّقه إرباً.

لكن وفيما كان يتكلم، سألته: «ومتى كنت تنوي أن تنبذني تحديداً... أمام المذبح؟».

تصادمت كلماتهما، وتجمّدت وبدت وكأنها علقت في الهواء فيما راحا يحدّقان إلى بعضهما البعض. عينان زرقاوان تشتبكان بعينين بنيتين عميقتين، عميقتين.

سألته: «إذلال؟».

- أنبذك؟

وفجأة، وببطء، وفيما عيونهما لا تزال متشابكة، هزّ كل منهما رأسه في إنكار للاتهام الذي حملته كلماتهما. هذه المرة، كان من الصعب معرفة من تكلّم منهما أو لعلهما تكلما في آن معاً. ترددت هذه الكلمة الوحيدة بصوت ذكوري عميق أجش وبنبرتها الأخف إنما التي لا تقل عمقاً عن نبرته.

- جايك...

كانت والدته من تكلم هذه المرة، لتذكّره أخيراً بأنها لا تزال في الغرفة. وفجأة، خيّل إليه أنه أدرك ما الخطب تحديداً.

والدته تعتبر مرسيدس العدو، وهذا الشعور يظهر جلياً ويشعّ منها. وبوجود اليزابيت في الغرفة، من المستحيل أن تنطق مرسيدس بالحقيقة أو أن تطلعه على شعورها الفعلي.

وبعد جهد جهيد، أبعد عينيه عن وجه مرسيدس المذهول. وتجاوزها متوجهاً إلى الباب الذي فتحه على اتساعه.

- أمي... اخرجي.

كان أمراً قاسياً وفظاً، فمشاعره الحالية لا تسمح له باستخدام نبرة أنعم.

وأضاف رغماً عنه: «من الأفضل، أن أبقى وحيداً مع مرسيدس».

النظرة التي رمق بها اليزابيت عنت: لا تجادليني، لا تحاربيني في هذه المسألة أو تجعليني أختار، لأن الجواب الذي سأعطيه إذا ما طلبت مني ذلك

لن يعجبك.

وتنهّد تنهيدة ارتياح حين رأى تعبير وجهها المشدود والمستعد للجدال يتلاشى ويرقّ والتفتت لترمي مرسيدس بنظرة بطيئة، مقيّمة قبل أن تفعل ما طلبه منها وتخرج من الغرفة.

حتى أنه خيّل إليه أنها همست: «حظاً سعيداً» وهي تمرّ به لتخرج.

أقفل جايك الباب بحزم خلفها، واستند إليه للحظة، مغمضاً عينيه لثوانٍ معدودات قبل أن يستدير ليواجه مرسيدس مجدداً.

قال بقدر ما استطاع من الحزم والهدوء: «والآن، ما كل هذا؟».

- ما كل هذا؟.

لم تستطع مرسيدس أن تصدّق أنه يطرح عليها هذا السؤال. ألم يسمع كلمة واحدة مما قالته؟ هل يظن أنها صماء بقدر ما هي حمقاء؟.

- سمعت ما قلته.

- أعلم ذلك.

لم تطرف عيناه الزرقاوان بل بقيت نظرته متشابكة بنظرتها بحدة جعلت من المستحيل عليها أن تشيح بعينيها. وأردف قائلاً: «لقد بيّنت ذلك بشكل واضح».

- حسناً، إذن. . . .

- هل الأمر سيء إلى هذا الحدّ؟ هل هو منفّر للغاية؟.

- هل عليك أن تطرح هذا السؤال؟ وقفت هنا وقلت. . . قلت إنك مصمم على ألاّ ينتهي بك الأمر متزوجاً مني. . . ومن ثم تسألني، تتجرأ على أن تسألني إنّ كان الأمر سيئاً إلى هذا الحد؟.

- لا . . .

حاول جايك أن يقاطعها وأن يعترض على كلامها، لكنها كانت غارقة في ألمها ويأسها وبؤسها بحيث لم تعد تسمع ما يقوله.

- أتعرف كيف شعرت حين سمعتك تقول هذا الكلام؟ حين أدركت أنّ كل هذا لم يكن سوى مخطط. . . خطة وضعت بدقة وإحكام للانتقام؟.

- مرسيدس. . .

- أصبحت أدرك الآن أنك على الأرجح خططت لإيقاعي في شركك. ولو لم أهرب منك في الوقت المناسب، لنجوت بفعلتك. لعلك خططت حتى لـ. . . لقتل عصفورين بحجر واحد. لعلك خططت لاستخدامي لتلقّن كارين أيضاً درساً. . . لتظهر لها أنك انتهيت منها هي أيضاً. . . في الوقت نفسه الذي تثبت لي فيه أني لا أعني لك شيئاً.

- لا . . .

- لكني هربت منك حينذاك. لقد أفسدت خطتك، وكبت حاجتك المرضية إلى الانتقام بفراري منك. فلحقت بي، طلباً لأكثر من ذلك. . . وقد أتحت لك الفرصة، بغبائي وسذاجتي، أنا البائسة، العمياء. ارتميت بين ذراعيك مباشرة وسمحت لك بأن تتحكم بي وتحركني كيفما تشاء.

- ليس على الفور.

نبرة جايك كانت فرحة، كما أنها رأت شبه ابتسامة على وجهه الوسيم المذهل فلم تصدّق عينيها. وأردف يقول: «لقد قاومتني قليلاً في بادىء الأمر».

- إنما، ليس بما يكفي! تركتك تستغلّني. . . تجرحني. . . سمحت لك بأن تنفذ انتقامك الذي خططت له ضد عائلتي. . .

- مرسيدس، لا!.

بدت تعابير جايك ممزقة كلياً، وارتفعت يداه في الهواء في حركة انكار ودفاع عن النفس.

- لا، لا، لا، لا!.

وسار قاطعاً الغرفة، متوجهاً نحوها، وأمسك بيديها الاثنتين وشدّ عليهما بإحكام، فيما احترقت العينان الزرقاوان في العينين البنيتين، بعد أن أصبح وجهه على بعد أنملة من وجهها.

- المسألة ليست على هذا النحو. . . ولم تكن يوماً على هذا النحو، صدقيني. لم ألحق بك أبداً من أجل الانتقام بل لأني لم أستطع أن أمنع نفسي

من ذلك. لم أستطع البقاء بعيداً عنك، لم أستطع أن أخرجك من ذهني. عليك أن تصدقيني!.

- لـ... لماذا؟.

أرادت أن يخرج سؤالها من بين شفتيها قوياً ومتحدياً، مطالباً بجواب واضح، لكن شيئاً ما في تعابيره، في قوة قبضته على يديه، جرد صوتها من قوته وجعله يرتجف بشكل مخجل، فاضحاً التأثير الذي يتركه فيها، تأثير لم تشأ أن يعرف مداه.

- لِمَ عليّ أن أصدّقك؟.

- إذا كان هذا شعورك فمعناه أنك لم تسمعي الحديث كله جيداً. إذا صدّقت أنني قلت إني لن أتزوجك يوماً، فهذا يعني أنك لم تسمعي بشكل صحيح... وأنك لم تسمعي كل ما قلته.

- كل ما قلته؟.

تلعثم لسانها وهو ينطق بهذه الجملة كما تشكّلت عقدة قاسية وقوية من الانفعال في حنجرتها. إن رغبتها في تصديقه مخزية فعلاً ومحرجة. النظرة الزرقاء المركزة تلك قالت إن بإمكانها أن تثق به.

أشفق جايك عليها للمعركة التي تخوضها كي تتمكن من الكلام، وقال: «لا يمكن أن تكوني قد سمعت بشكل صحيح، لأنّ ما قلته هو أنّ الزواج منك بالخطأ هو ما لن أفعله أبداً. ولا بدّ أنك لم تسمعي الحديث كله، إذ قلت حينذاك إني حين سأطلب من المرأة التي أحب أن تتزوجني، فأنوي أن أفعل ذلك عمداً. أريد أن يعرف الكل أنّ ما من خطأ في المسألة... بل أن هذا الزواج هو جلّ ما أرغب فيه في هذا العالم.

«لا بدّ أنك لم تسمعي الحديث كله...».

عادت مرسيدس بالذاكرة إلى تلك اللحظات التي أمضتها عند الباب، واستعادت الكلمات التي قالها جايك... سمعتها مجدداً في ذهنها، مع تفسير مختلف جداً لها، وهو التفسير الذي أعطاه لها جايك. بعدئذٍ، تعالى الطنين، تلك الضجة العظيمة والمشوشة في رأسها حين شعرت للحظة أنه

يكاد يغمى عليها... و... و...

ولم تعد قادرة بعدها على سماع أيّ شيء آخر!.

إذا ما قال جايك...

حين قال جايك...

وراحت تتذكر الطريقة التي قال بها جملته: «أتعتبرين طلبي الزواج منك إذلالاً وإهانة؟». لقد قال الكلمتين الأخيرتين بنبرة قاسية وجلفة، نبرة تسببت لها بألم قاسٍ ومرير لم تختبره قط من قبل.

- المرأة التي... من...؟.

أرخى جايك قبضته على يديها. لم يعد يسحقهما بقوة الحاجة إلى جعلها تصدّقه، بل أمسك بهما بحزم وأمان، قبضته لطيفة إنما قوية وكأنه لن يطلق سراحها أبداً.

- من تظنين يا عزيزتي؟ المرأة التي أحب هي أنت. المرأة الوحيدة في العالم التي أرغب في الزواج منها هي أنت. هذه هي الحقيقة الصرفة... ولطالما كانت كذلك. في البداية، كنت أعمى للغاية بحيث لم أرَ. عندما قلت إني لم أستطع أن أطردك من ذهني، لم أدرك قط أنّ الحقيقة هي أني لم أستطع أن أخرجك من قلبي. إني أحبك يا مرسيدس، فهل يمكنك أن تصدّقي هذا؟.

كيف يمكنها أن تصدّق أيّ شيء آخر؟ بدت الحقيقة جلية في عينيه ووجهه وابتسامته اللطيفة والحنون التي بدت وكأنها تسبح في بريق الشمس الناعم، الذهبي.

- نعم... نعم، يمكنني ذلك.

بذلت جهداً لكي تتكلم، وخرج صوتها أجش وخشناً بعد أن ذابت العقدة التي كانت قد تشكّلت في حنجرتها، وعاد قلبها إلى الحياة وراح يرتعش بين أضلعها، هذا القلب الذي بدا وكأنه كان متجمداً خلال هذا الوقت كله.

اغرورقت عيناها بالدموع، لكنها لم تعد دموع حزن وألم بل دموع فرح

وسعادة. مسحت هذه الدموع بعصبية كي تتمكّن من رؤية وجهه والتغيّر الذي ظهر عليه بعد أن وجدت القوة اللازمة لتتكلم مجدداً.

- يمكنني أن أصدّق ما قلته... لأن الرجل الوحيد في العالم الذي أرغب في الزواج منه هو أنت. أعتقد أني وقعت في حبك منذ رأيتك للمرة الأولى، في تلك الحفلة في لندن... ولهذا السبب تصرفت بتلك الطريقة التي لا تشبهني أبداً. لكني لم أكن أعلم ذلك... لذا، خفت من نفسي. الحب مخيف فعلاً، أليس كذلك، لا سيّما حين لا تعرف ما يحصل لك ولا تفهمه؟ لكني بت أعلم الآن، لهذا السبب يمكنني أن أقول... إني أحبك يا جايك، حباً أكبر مما يمكن للكلمات أن تعبّر عنه.

النظرة التي ارتسمت على وجهه كانت جلّ ما حلمت به يوماً، وعندما التقت عيناها بعينيه اللامعتين، ورأت ابتسامة الحب تتسع وتتعمّق، أدركت أنّ السعادة المطبوعة على ملامحه المذهلة كلها تتطابق مع تعابيرها وتنعكس فيها.

وأخيراً، ترك جايك يديها وأحاطت ذراعه بخصرها، يدنيها منه ويضمها إليه بشدة حتى أصبح من المستحيل معرفة أين تنتهي هي وأين يبدأ هو.

أخفض نظره إلى وجهها، وتأملها بعينين داكنتين للغاية بحيث لم تعودا زرقاوتي اللون، بل سوداوين كالليل الفاحم، ثم ابتسم من جديد.

- إذن، دعينا نحاول من دون كلام... هل يخبرك هذا عن حقيقة شعوري؟.

عناقه كان كل ما حلمت به وأكثر. كان عناقاً من الحنان والولع بحيث أنّ دموع السعادة التي كافحت لمنعها من الانهمار شقّت طريقها وتغلّبت على سيطرتها على نفسها، وتدفّقت من عينيها لتسيل على خديها فمسحها جايك بحنان ونعومة.

- حبيبتي، أعلم أنّ البداية كانت خاطئة، وأننا حرقنا بعض المراحل... فقد أعلنا الخطوبة حتى قبل أن أطلب يدك... لكني أريد

الآن أن تأخذ الأمور مجراها الصحيح. أحبك أكثر من العالم كله وأريد أن أمضي بقية عمري معك وأن أشيخ معك، وأن أشاطرك حياتي. فهل تقبلين بي زوجاً لك... هل ترضين بأن تصبحي زوجتي... وتحملي أولادي؟.

خرجت موافقتها بصوت خفيض، ومن صميم القلب. فعكست كل المشاعر التي يمكن أن تحملها بكلمة وحيدة.

- نعم، سأتزوّجك وأودّ لو أصبح زوجتك... وأحمل أولادك...

وشقّت ابتسامة جديدة ومختلفة طريقها عبر دموعها وهي ترفع وجهها إلى وجهه الحبيب.

* * *

جرت التحضيرات للزفاف على قدم وساق. وكانت مرسيدس خلال هذه الفترة متألقة، سعيدة.

وبعد أسبوعين، عقد قرانهما في الكنيسة نفسها التي تزوّج فيها رامون واستريللا. وقد اختار جايك ابن خالته، رامون، شاهداً له فيما وقفت استريللا وصيفة للعروس السعيدة.

وقف جايك عند المذبح ينتظر عروسه في الكنيسة المزينة بالورد الأبيض، وقد بدا غافلاً عن الموجودين فيما شخصت عيناه إلى الباب الذي ستدخل العروس منه.

وفي هذه الأثناء، كانت مرسيدس تنهي استعداداتها في المنزل الذي خيّم عليه السكون والصمت. فقد سبقها الكل إلى الكنيسة ولم يبق فيه سواها ووالدها.

دخل والدها إلى الغرفة وهي تثبّت خمارها الرقيق، فراح يتأملها. قال والغصة تخنق صوته: «تبدين رائعة كأمك تماماً. هيا، يا عزيزتي، السيارة تنتظرنا في الخارج».

وبعد قليل، تعالى صوت الأرغن معلناً وصول العروس، فالتفت جايك وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة.

دخلت العروس متأبطة ذراع والدها، وقد بدت متألقة في ثوبها

www.elromancia.com

العاجي اللون والمصنوع من الحرير بياقته المحفورة بأناقة، وبذيله الطويل الرومنسي المزيّن باللؤلؤ.

كان معظم الضيوف من المنطقة، رغم وجود بعض الوجوه الغريبة، وهم على الأرجح من أصدقاء جايك، من انكلترا.

وجه مرسيدس المشعّ لفت أنظار الكلّ، إذ بدت في أبهى حلّة.

وعندما وصلت إلى جانب جايك، همس لها: «حبيبتي... سنيوريتا ألكولار».

رفعت وجهها إليه وابتسمت فبادلها الابتسام والشغف بادٍ في عينيه. نطقت بعهود الزواج بصوت واضح عكس سعادتها وثقتها بحبه، وعيناها شاخصتان إلى عيني جايك.

وعندما انتهت طقوس الزفاف وخرجا من الكنيسة تحت سيل من حبوب الأرز والورق الملوّن، توجها إلى منزل أسرة ألكولار حيث سيقام الحفل الراقص وحيث أعدّت وليمة تكفي لجيش من الضيوف.

استمرت الحفلة طويلاً وبدا الكل مستمتعاً وغير مستعجل للرحيل، لكن جايك تسلل مع عروسه تاركاً الضيوف يرقصون ويمرحون ويتسامرون، متجهاً إلى المكان الذي اختاره لقضاء شهر عسلهما.